نفوذ العلمانية فى نواحى الحياة

• سُنَّة اللَّه فى الصراع بين الحق والباطل :

جرت سُنَّة اللَّه تعالى الاجتماعية أن يحتدم الصراع بين الإيمان والكفر ، والحق والباطل ، والهُدَى والضلال ، وإنما يثير هذا الصراع المعتقدات التى يدين بها الناس ، والاتجاهات الفكرية التى توِّجه سلوكهم ، ويستوحون منها مفاهيمهم عن الحياة .

وهذه السُنَّة الاجتماعية بدأت وسايرت الحياة البَشرية فى عصور التاريخ المختلفة ، فى تباين المعتقدات ، واختلاف الأفكار ، وما يترتب على هذا من انتصار كل لمعتقده وفكره ، ولذا كانت مشروعية القتال فى سبيل اللَّه لحماية الإيمان والحق والهُدَى ، ودرء الفساد والشر ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ ﴾ (١) .

وقد تميَّز هذا الصراع العقدى الفكرى فى العصر الحديث بالتفنن فى أساليبه ووسائله ، وكثرة شُعبه ومذاهبه ، وسرى تيَّاره من بلد لآخر ، يمهد الطريق للسيطرة والنفوذ ، واستغلال الموارد ، وان لم يعلن حرباً ضروساً ، تحصد الناس ، وتدمر العامر .

والحرب العَقدية الفكرية أشد ضراوة من الحرب العسكرية ، لأنها تسلب النفوس ، وتقضى على الأرواح ، وتهدم القيم والأخلاق ، وتحوِّل الحياة الإنسانية إلى جحيم لا يُطاق .

---

(١) البقرة : ٢٥١

ومهما تعددت التيّارات الفكرية الحديثة المعادية للإسلام ، فإنها تنتمى إلى اتجاهين اثنين :

١ - اتجاه يرتدى ثوب العلم ، يتمثل فى الحضارة الغربية وحملاتها ضد الإسلام ، ودعوة المسلمين الى أن يواكبوا ركب هذه الحضارة بمفاهيم جديدة ، حتى يخرجوا من هذا الركود الذى يعيشونه ، ويوشك أن يُفضى بهم إلى الفناء المحقق .

٢ - واتجاه مادى إلحادى يتمثل فى الماركسية ، التى تتنكر للأديان ، وتدعو إلى الملكية الجماعية ، وتداعب أحلام الشعوب الفقيرة ، والطبقة الكادحة برخاء العيش ، وبلهنية الحياة .

وكلاً الاتجاهين فكر يخفى وراءه أهدافاً استعمارية ، ومطامع دولية ، وهو ما يشمله المصطلح العام للاستعمار الغربى .

ونشأت بداية الصراع الفكرى بين الإسلام وخصومه عندما اتصل الغرب المسيحى بالشرق الإسلامى اتصال اعتداء مسلّح طوال قرنين من الزمان ، من نهاية القرن الحادى عشر إلى آخر القرن الثالث عشر الميلادى [١] ، وهو اعتداء الحروب الصليبية .

والحروب الصليبية هى سلسلة حروب شنّها المسيحيون الأوربيون لاستعادة الأراضى المقدسة ، وبخاصة بيت المقدس من أيدى المسلمين ، وقد قلّم صلاح الدين الأيوبى أظافرهم ، وألحق بهم الهزيمة ، وانتهى أمرهم بالفشل والخيبة .

وحيث أدرك الغرب فى الحروب الصليبية ضعف المجتمع الإسلامى ، وما يحتويه من ثروات ضخمة متعددة المصادر ، فإنه أخذ يخطط لاستغلال هذه

---

(١) كانت الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٥ م من الفرنسيين والألمان ، يقودها بطرس الناسك وآخرون .

الحالة فى الاتصال الاقتصادى بالبلاد الإسلامية ، لكشف موارد ثروتها ، واستثمارها لصالح الغرب ، وصاحَبَ هذا نفوذ سياسى تدرّج حتى وصل منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر حتى الربع الأول من القرن العشرين منتهى ما يصل إليه نفوذ قوى على ضعيف ، وأخذ هذا النفوذ الغربى يعمل على :

١ - اتخاذ الوسائل الممكنة لتستمر سيطرته على المسلمين .

٢ - الحرص على أن يظل المسلمون متخلفين .

٣ - التنفيس عن الحقد الصليبى وعدائه للإسلام ، باتباع الوسائل والأساليب التى تُخرج المسلمين من دينهم ، وإن لم يعلنوا رِدَّتهم .

وحتى يحقق النفوذ الغربى أهدافه عمد إلى تشويه الإسلام ، والاستهانة بتراثه ، واتخذ من المقارنة بين الغرب الصليبى والشرق الإسلامى من تقدم الأول وتأخر الثانى وسيلة لذلك ، ووقر فى أذهان بعض الناس أن المسيحية دين المتقدمين ، وأن الإسلام دين المتخلفين .

نشأ من ذلك أن قام بعض المسلمين ينادى باتباع الغرب فيما وصل إليه من حضارة صناعية وعلوم طبيعية ونظام اجتماعى ، بل زعم بعضهم أن هذا لا يكون إلا بالتقريب بين المسيحية والإسلام ، ودعا نفر غير قليل فى أنحاء العالَم الإسلامى إلى تحديث الإسلام بموجات التغريب العارمة .

وفى مقابل هذا كان هناك تيّار إسلامى أصيل ، يقاوم اتجاه التغريب ، ويدعو إلى احتفاظ المسلمين بشخصيتهم فى ضوء القرآن والسُنَّة ، ويُجلى صفاء العقيدة الإسلامية ، ويُقَوِّم ما اعْوَجَ من حياة الناس . ويعيد إليهم الثقة فى صلاحية الشريعة الغرّاء لكل عصر ، وبدأت نواة هذا التيّار الإسلامى بحركة المجدِّد المصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ - ١٢٠٦ هـ) .

وبانتهاء القرن التاسع عشر تبلور هذان الاتجاهان فى العالَم الإسلامى ، وظل هذا قائماً فى القرن العشرين :

١ - اتجاه التجديد فى خدمة الاستعمار الغربى ، وهذا الاتجاه نَمَّاه حركة التنصير « التبشير » والاستشراق ، ثم تبعه الإلحاد المادى الغربى فى الفكر الماركسى ، وكانت مناهج التعليم ووسائل الإعلام طريقاً ميَّسراً لنشر أفكاره ، وكانت البعثات التعليمية التى تعود من ديار الغرب ساعداً قوياً له ، حيث تتولى المناصب القيادية ، فى الجامعات والمؤسسات الموَّجهة للأمة ، وفى السلطة التنفيذية التى تحكم البلاد .

٢ - اتجاه الإصلاح الذى يدعو إلى تجديد المفاهيم الإسلامية والخروج بها عن الجمود الذى أصابها ، وإقامة الحياة فى شتَّى شُعَبها على الإسلام عقيدة وعبادة وشريعة ومنهجاً متكاملاً لبناء الأمة الحضارية فى العصر الحديث .

ويتمثل هذا الاتجاه فى حركة جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده - مع ما وجه إليهما من نقد يدعو إلى التحفظ - ثم فى حركة عبد الحميد بن باديس ، وحسن البنا ، وأبى الأعلى المودودى .

وقد تصدَّى هذا الاتجاه لما أثارته حركة التجديد الغربى من شُبه وقضايا ، لتوهين الإسلام فى نفوس أبنائه ، وفقدان الثقة فى صلاحيته لاستيعاب الحضارة الحديثة ، علمانية كانت أو ماركسية .

* * *

● التعريف بالعلمانية :

والعلمانية مصدر صناعى منسوب إلى العلم ، زيدت فيه الألف والنون على غير قياس فى اللُّغة العربية ، والأصل أن يُقتصر فى ذلك على السماع ، ثم شاع هذا الاستعمال عند المتأخرين ، كقولهم : جسمانى ، وروحانى ، ونورانى ،

ومعناها فى اللُّغة : النسبة إلى العلم . هذا من حيث الاشتقاق اللُّغوى حسب النطق الشائع لها « العِلمانية » - بكسر العين ، ولكن حقيقة معناها لا تتصل بالعلم ، وإنما تعنى الدنيوية أو اللادينية ويتضح هذا من معناها اصطلاحاً ، ولعل العِلمانيين أرادوا أن يجعلوا النسبة إلى العلم باعتبار أن ظهور العلمانية كان انتصاراً للعلم على السلطان الكَنسى .

والعِلمانية اصطلاحاً : تُطلق على كل ما لا صلة له بالدين ، وبهذا جاء تعريفها فى داوئر المعارف والمعاجم الأجنبية ، ففى دائرة المعارف البريطانية : «هى حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس عن الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بالحياة الدنيا وحدها ، ذلك أنه كان لدى الناس فى العصور الوسطى رغبة شديدة فى العزوف عن الدنيا والتأمل فى اللّه واليوم الآخر ، ومن أجل مقاومة هذه الرغبة طفقت العِلمانية تعرض نفسها من خلال تنمية النزعة الإنسانية ، حيث بدأ الناس فى عصر النهضة يُظهرون تعلقهم الشديد بالإنجازات الثقافية البشرية ، وبإمكانية تحقيق طموحاتهم فى هذه الحياة القريبة ، وظل الاتجاه إلى العِلمانية يتطوَّر باستمرار خلال التاريخ الحديث كله ، باعتبارها حركة مضادة للدين ، ومضادة للمسيحية » [1] .

وتُعرِّفها المعاجم الأجنبية بألفاظ متقاربة : الروح الدنيوية ، أو الاتجاهات الدنيوية ، أو المادية .

والتعبير الشائع فى الكتب الإسلامية المعاصرة هو : « فصل الدين عن الدولة » وهو فى الحقيقة لا يعطى المدلول الكامل للعلمانية فيما يتصل بسلوك الأفراد ، ولو قيل : إنها فصل الدين عن الحياة ، لكان أصوب ، ولذلك فإن

---

(١) انظر كتاب « مذاهب فكرية معاصرة » محمد قطب ، ص ٤٤٥ - ط . دار الشروق .

المدلول الصحيح للعلمانية هو : إقامة الحياة على غير الدين ، سواء بالنسبة للدولة أو للفرد »[1] .

والشأن فى المسيحية أنها دين ، يتحاكم قومه إليه فى شؤون حياتهم ، ولكن الكنيسة تنزلت عن هذا المفهوم حين اعتنق الإمبراطور الرومانى قسطنطين الأول (٢٨٨ - ٣٣٧ م) النصرانية بعد أن كان وثنياً يضطهد النصارى ، ودعا سنة ٣٢٥ م إلى مجمع نيقية المشهور ، وأعلن على إثره أن المسيحية عقيدة رسمية للإمبراطورية الرومانية ، فرأت الكنيسة أن تقرب منه بما يرضيه ، ففصلت بين العقيدة والشريعة ، أو بين الدين والدولة ، وقسّمت الحياة البَشرية إلى دائرتين : الأولى « دينية » من اختصاص اللّه ، ويقتصر محتواها على الرهبنة والمواعظ ، والأخرى « دنيوية » من اختصاص قيصر وقانونه ، وتشمل التنظيمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلاقات الدولية ونُظم الحياة العامة .

وعذر الكنيسة فى ذلك أن الإمبراطورية الرومانية الوثنية كانت مغرقة فى الملذات الجسدية ، وفى عدائها للمسيحية ، وقد سرها تحول قسطنطين إليها ، فرأت تحقيقاً للوفاق أن تتغاضى عن اعتبار المسيحية شريعة حاكمة ، وقسّمت الحياة تلك القسمة الضيزى : دينية للكنيسة ، ودنيوية لقيصر ، فجعلت قيصر شريكاً للّه فى مُلكه .

* * *

● ما نُسِبَ إلى المسيح :

وتعللت الكنيسة بنصين منسوبين للمسيح :

أحدهما : « أعطِ ما لقيصر لقيصر وما للّه للّه » .

والثانى : « مملكتى ليست من هذا العالَم » .

---

(١) انظر كتاب « العلمانية ، نشأتها وتطورها وآثارها فى الحياة الإسلامية المعاصرة » سفر بن عبد الرحمن الحوالى ، ص ٢١ وما بعدها - دار مكة للطباعة والنشر والتوزيع .

أما النص الأول فلم يثبت عن المسيح ، ولكنه من إضافات الكنيسة ، فيما أدخلته على الأناجيل من تحريف ، ولا يتأتى لرسول بعثه الله بعقيدة التوحيد التى بُعِثَ بها رُسل الله جميعاً أن يقول هذا القول الذى ينافى توحيد الألوهية فى وجوب طاعة الله والانقياد لشرعه ، فكيف يتخلى المسيح عليه السلام عن إقامة شريعة الله فى واقع الحياة ، ويقر أحكام الطاغوت ؟

ولو فرضنا جدلاً أن المسيح تفوَّه بهذه العبارة فإن سياق الكلام الذى وردت فيه لا يعطى هذا المفهوم الذى فهمته الكنيسة .

لقد رُوِىَ أن طائفة من اليهود استدرجت المسيح للإيقاع به عند قيصر ، فسألته : أيجوز أن تُعطى جزية لقيصر أم لا ؟ وكان المسيح وأتباعه قلّة مضطهدة ليس فى مقدورها أن تواجه الإمبراطورية الرومانية الطاغية بعداء سافر فى طَور الدعوة آنذاك ، طور النشأة ، حتى لا يبطش بها عدوها فى مهدها - كما كانت مرحلة العهد المكى فى سيرة رسولنا ﷺ إلى أن أذن الله له بالجهاد - فأجابهم المسيح عن سؤالهم ، وقال لهم : أرونى معاملة الجزية ، فقدَّموا له ديناراً ، فقال لهم : لمن هذه الصورة والكتابة ؟ قالوا له : لقيصر ، فقال لهم : « أعطوا إذن ما لقيصر لقيصر وما لله لله » . ولم يكن فى استطاعة المسيح والقلّة المسلمة معه رفض دفع الجزية للجابى الرومانى فى هذه المرحلة من مراحل الدعوة ، ولو كانت لدى المسيح قوة لقاوَم الظلم وما اعترف لقيصر بهذا الحق .

أما النص الثانى : « مملكتى ليست من هذا العالَم » فقد فهمته الكنيسة فهماً خاطئاً ، وقالت : إن الدنيا والآخرة ضدان لا يجتمعان ، فالدنيا مملكة الشيطان ، ومحط الشرور والآثام ، يتحكم فيها السلاطين كما يشاؤون ، ويستمتعون بالحياة الدنيا حتى يأتى يوم الحساب والجزاء ، أما المسيحى الذى يبتغى مرضاة الله وثوابه فعليه الخلاص من المملكة الشيطانية ، والاهتمام بالمملكة الباقية الخالدة ، مملكة الآخرة .

والقصة التى تُروَى فى الأناجيل لا تدل على هذا الفهم ، إذ رُوِىَ أن اليهود كادوا للمسيح لدى الحاكم الرومانى فى مقاطعة « يهوذا » واتهموه بأنه يدَّعى أنه ملك على اليهود ، ويهدف إلى استقلال أُمته عن الاستعمار الرومانى والتبعية لقيصر ، وتروى القصة فى إنجيل يوحنا أن المسيح عليه السلام قال أثناء التحقيق معه : « مملكتى ليست من هذا العالَم » وهو يعنى أنه ليس مَلِكاً من ملوك الدنيا على طراز قَيصر وكِسرى ، ولا ينفى هذا المُلك الذى يقوم على شريعة اللّه » [1] .

* * *

● انحراف رجال الدين المسيحى :

يقوم على أمر الدين رجاله المختصون لحفظه وحمايته وإعطاء صورة صادقة عنه ، ولكن حَمَلَة هذه الأمانة من الأحبار والرهبان افتتن كثير منهم بالدنيا ، واشتروا بعهد اللّه ثمناً قليلاً ، واستغلوا مكانتهم الدينية ، ففرضوا على الناس حقوقاً ما أنزل اللّه بها من سلطان ، وهؤلاء هم الذين سموا برجال الدين .

عُرِفَ هذا فى أحبار اليهود ، ثم حذا حذوهم القسس والرهبان من النصارى ، فأغرتهم الدنيا ، واستعبدوا أتباعهم ، وكوَّنوا لأنفسهم سلطة هرمية متدرجة ، تبدأ قاعدتها بالرهبان ، ويجلس على قمتها البابا ، وحيث فُصِلَ الدين عن الدولة فى الإمبراطورية الرومانية بعد اعتناقها للمسيحية فقد كانت المصلحة المشتركة تقتضى أن ترعى الإمبراطورية هذا السلطان الكَنسى الذى لا يعارض فى وجودها ، ويترك لها شؤون الحياة .

ابتدع رجال الدين هؤلاء مبدأ « التوسط بين اللّه والخلق » فالمذنب لا يتجه بتوبته إلى اللّه ، وإنما يتجه إلى رجل الدين معترفاً بذنبه ، حتى يتوسَّط لدى اللّه فيغفر له ، وبذا نَصَبَ رجال الدين أنفسهم أنداداً للّه ، وأوقعوا أتباعهم فى

---

(١) انظر المرجع السابق ص ٦٥ وما بعدها .

الشرك الأكبر ﴿ اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ (١) ، وكان من أثر ذلك مهزلة صكوك الغُفران ، فأصبح رجال الكنيسة يعرضون الجنَّة للبيع ، ويكتبون وثائق للمشترين ، تتعهد فيها الكنيسة بأن تضمن للمشترى غُفران ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر ، وبراءته من كل جرم وخطيئة سابقة ولاحقة ، والذين لا يشترون هذا الصَّك يظلون محرومين من استحقاق نعيم الجنَّة مهما بلغت تقواهم وعظم حبهم للمسيح ، وتعلقهم بالعذراء .

وقد أثرت الكنيسة ثراءً فاحشاً من بيع الصكوك ، حتى أصبحت أغنى طبقات المجتمع الأوروبى ، لا ينازعها فى ذلك سوى طبقة النبلاء الأشراف من أصحاب الإقطاع .

واتخذ الناس هذا المبدأ « التوسط بين اللّه والخلق » فيما بعد سلاحاً ضد الأديان بعامة ، والمسيحية بخاصة .

والعبادة تعنى فى مفهومها أن يُذعن العبد للّه إذعاناً كاملاً فى تصرفاته وأفعاله الاختيارية فى ذلة وخضوع ، وهى كما عرَّفها شيخ الاسلام ابن تيمية : « اسم جامع لكل ما يحبه اللّه ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة » .

وأباح اللّه لعباده الطيبات من الرزق مع الحفاظ على الغاية فى قصد العبادة ، ولكن الكنيسة غلت فى مفهوم العبادة والطاعة ، واتخذت من عقيدة الخطيئة وسيلة للخوف الشديد من بأس اللّه وعقابه ، وما يستدعيه ذلك من الإعراض عن الدنيا إعراضاً كاملاً ، فابتدعت الرهبانية التى قال اللّه تعالى فيها : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ، وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ (٢) .

---

(١) التوبة : ٣١

(٢) الحديد : ٢٧ ، والرهبانية مصدر صناعى منسوب إلى الرهبة - بزيادة الألف والنون - على غير قياس .

وموجز عقيدة الخطيئة عند النصارى فى تعاليم المسيحية المحرَّفة ، أن آدم عليه السلام أكل من الشجرة « شجرة المعرفة » فعاقبه اللّه بالطرد من الجنَّة ، وأسكنه الأرض ، وظل الجنس البَشرى يرسف فى أغلال تلك الخطيئة أحقاباً متطاولة ، حتى أنزل اللّه ابنه (تعالى اللّه عن ذلك عُلُواً كبيراً) ليُصلب فداءً للنوع الإنسانى ، وليبين للناس طريق الخلاص من هذه الخطيئة ، فأصبح لزاماً على الإنسان أن يحتقر الدنيا ، ويحرم نفسه مما فيها ، حتى يهلكها طلباً للخلاص .

يقول إنجيل لوقا : « مَن طلب أن يُخَلِّص نفسه يُهلكها ، ومَن أهلكها يُحييها » [1] وتقتضى هذه الرهبانية العزوبة ، والتجرد الكامل عن الدنيا ، والعبادة المتواصلة .

وقد كان لهذه الرهبانية عواقب وخيمة ، إذ انخرط فى سلك الرهبانية الفُسَّاق ، فلطَّخوا حياة الرهبنة بأبشع صور الدعارة والفساد ، وأصبحت الأديرة مباءة الفجور ، وتزعزعت فى نفوس الناس القِيَم الأخلاقية والدينية ، وفقدوا ثقتهم فى الدين ، ثم دَبَّ الضعف إلى الكنيسة ، وتقلَّص سلطانها .

انتكست الكنيسة ، وتخلت عن تعاليم المسيح فيما تدعو إليه من تسامح : « مَن لطمك على خدك الأيمن فأدِرْ له الآخر أيضاً ، ومَن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً ، ومَن سخَّرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين » [2] ، وتحوَّلت إلى سلطان قاهر رهيب فى تنظيم هرمى يبدأ بالراهب وينتهى بسلطة البابا الأكبر فى روما ، وأضفت الكنيسة على رجالها ثوب القداسة ، وادعت لنفسها حقوقاً لا يملكها إلا اللّه ، مثل حق الغُفران ، وحق الحرمان ، وليس لأحد

---

(١) إنجيل لوقا ١٧ : ٢٤

(٢) إنجيل متى ٥ : ٤٠ ، ٤٢

سواها أن يشرح الكتب المقدسة ، ومَن توسوس له نفسه أن يخالف الكنيسة فإنه يُساق إلى محاكم التفتيش ، ليجد جزاءه فى السجن والتعذيب والقتل .

وكما أسهمت الكنيسة فى طمس الدين وتعطيل شريعته فإنها فرضت نفسها وَصيَّة على الملوك والأمراء ، وأرغمتهم على الخضوع المذل لها ، وجعلت معيار صلاحهم للحكم ما يقدِّمونه لها من مراسم الطاعة حتى يدخلوا ملكوت اللّه .

واستغلت الكنيسة نفوذها فى امتلاك الأراضى والقصور ، وأرهقت الناس بالرسوم والهبات والعطايا حتى أصبحت مثلاً سيئاً للثراء الفاحش .

* * *

• الصراع بين الكنيسة والعِلْم :

يُعَد الصراع بين الدين والعلم المشكلة الرئيسية فى تاريخ الفكر الأوروبى منذ عصر النهضة إلى عصرنا الحاضر [١] ، وهو فى حقيقته صراع بين الكنيسة والعلم ، وليس بين الدين والعلم ، حيث حَرَّفت الكنيسة المسيحية على النحو الذى أسلفنا من قبل ، وهيمنت على المعتقدات والأفكار ، وجعلت ذلك عقائد إلهية .

فلما ظهر العلماء الغربيون بنظرياتهم فى الفَلَك والرياضيات والطبيعية وقالوا بدوران الأرض والكواكب حول الشمس ، وخرجوا بذلك على السلطان الكَنسى ، تصدت لهم الكنيسة ، وزجت بهم فى السجون ، وقدمتهم إلى محاكم التفتيش التى حكمت على بعضهم بالإعدام حرقاً .

ولم يكن هذا الصدام ليحول دون متابعة العلماء لأبحاثهم ، ولكنهم حاولوا فى البداية أن يُفرِّقوا بين المجال العقلى فى الفكر والحياة والمجال الدينى فى

---

(١) عصر النهضة : مصطلح يُطلق على التيارات الثقافية والفكرية التى بدأت فى إيطاليا فى القرن الرابع عشر ، وبلغت أوج ازدهارها فى القرنين : الخامس عشر والسادس عشر ، ومن إيطاليا انتشرت النهضة إلى فرنسا وأسبانيا وألمانيا وإنجلترا وسائر أنحاء أوروبا .

العقيدة والعبادة ، وقالوا : إن ميدان العلم الطبيعة ، وميدان الدين مصير النفس فى الدار الآخرة .

كثرت النظريات الحديثة فيما وصل إليه البحث فى الكون والطبيعة ، ولا سيما بعد ظهور نظرية الجاذبية لإسحاق نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧) وتصاعد الصراع مع الكنيسة ، وبدأ الهجوم على الدين نفسه وإنكار الوحى ، رغبة فى الانفكاك من ربقة الكنيسة والتحرر من عبوديتها ، وصار الطريق ممهداً للثورة الفرنسية .

* * *

* الثورة الفرنسية :

قامت الثورة الفرنسية تحت ضغط تلك العوامل كلها حتى تتخلص من المظالم الفادحة التى توارثتها أوروبا منذ العصور الوسطى [١] ، ومن طغيان الكنيسة وتنكيلها بالعلماء وتحالفها مع السلطة لاقتسام المصالح المشتركة ، قامت هذه الثورة تحمل روح النقمة على الدين ، والسخط على الكنيسة ، والتمرد على نظام الحكم الفاسد ، والانتقام من المستبدين ، فهبت الجماهير هبوب الريح العاصف ، وهجمت على سجن الباستيل الذى ذاق العلماء ودعاة الحرية فيه ألواناً من العذاب الوحشى ، وهدمته ، وأطلقت سراح نزلائه ، فى ١٤ يوليو سنة ١٧٨٩ ، وكان هذا الحادث البداية الحقيقية للثورة الفرنسية ، وهتف الرعاع وراء قوّاد الثورة [٢] ، بشعارها : الحرية والمساواة والإخاء ، لتسقط الرجعية ، والرجعية عندهم تعنى الدين ، فهى شعارات يُقصد بها تحطيم القيود الأخلاقية ،

---

(١) العصور الوسطى ، وتدعى بالعصور المظلمة ، مصطلح يُطلق على فترة الركود الدينى والعقلى والنظام الاجتماعى والنظام الإقطاعى الفاحش الذى ساد العالم الأوروبى منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية سنة ٤٧٦ م ، وانتهى بمنتصف القرن الخامس عشر ، أو باكتشاف كولومبس لأمريكا عام ١٤٩٢ م حيث بدأت المعرفة وكان الإصلاح .

(٢) كان على رأسهم « ميرابو » (١٧٤٩ - ١٧٩١) .

وكسر الحواجز التى أقامتها الطبقية ، واعتبار الدين مرادفاً للظلم والرجعية والتخلف والاستبداد فالفكاك منه فكاك من غل الاستعباد .

وتوالت الثورات بعد الثورة الفرنسية فى أوروبا ، ترفع هذه الشعارات باسم « حقوق الإنسان » وكان هذا يعنى فى البداية انهيار النظام الإقطاعى ، وانهيار نفوذ الكنيسة ، ولكنه انتهى باعتبار الدين والأخلاق ماضياً مندثراً بغيضاً عدواً للحضارة والعلم وحقوق الإنسان .

ثم ظهرت نظريات ساعدت على انهيار العقيدة الدينية ونشر الإلحاد فى أوروبا ، كنظرية تشارلس داروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢) التى أودعها كتابه « أصل الأنواع » وهى نظرية تفترض أن الكائنات العضوية على اختلاف أنواعها ترجع إلى أصل واحد مشترك ، وأنها تدرجت من الأحط إلى الأرقى حسب قانون « الانتقاء الطبيعى وبقاء الأنسب » وقد أدّى هذا إلى تحسن نوعى مستمر نتج عنه أنواع جديدة راقية كالقردة ، ثم إلى نوع أرقى وهو الإنسان ، ونظرية فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩) التى تعزو تصرفات الإنسان إلى تطور الغريزة الجنسية منذ الطفولة الأولى ، وتبدو فى المراحل الفمية والشرجية والقضيبية حتى تصل إلى بعد فترة كمون إلى المرحلة التناسلية أثناء المراهقة ، والتوقف فى أى مرحلة من هذه المراحل هو الذى ينشأ عنه الأمراض النفسية والعقلية ، أو عقدة أوديب كما يسمونها ، ونظرية كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) وصديقه فردريك أنجلز (١٨٢٠ - ١٨٩٥) وقد صدر المنشور الشيوعى سنة ١٨٤٨ ، وأصدر كارل ماركس الجزء الأول من كتاب « رأس المال » سنة ١٨٦٧ ، وأخرج أنجلز بعد وفاة صديقه الجزأين : الثانى والثالث ، ويعتبر « رأس المال » إنجيل الشيوعية المعاصرة ، وأطلق على هذا المذهب اسم الاشتراكية العلمية ، وعلى مبادئه قامت الثورة الروسية الماركسية سنة ١٩١٧

بزعامة لينين (١٨٧٠ - ١٩٢٤) وقالت فى الدين : إنه خرافة ، وإنه مُخَدِّر للشعوب .

وهكذا انتهى أمر العالَم الغربى بشقيه : الرأسمالى والشيوعى إلى عزل الدين عن الحياة ، بل إلى العداء للدين ، وأصبحت العلمانية فى الحياة الغربية الدين الجديد لها ، وإن كان الغرب الرأسمالى أقام حياته السياسية على النظام الديمقراطى المطلق ، أى الحكم الذى تكون فيه السلطة حقاً لجميع أفراد الشعب ، أما الغرب الشيوعى فإنه أقام حياته السياسية على سيادة الطبقة العاملة ، أو ما يسمى ديكتاتورية البروليتاريا .

ويتضح من ذلك العرض أن العلمانية التى يوحى لفظها بأن لها صلة بالعلم ، لا علاقة لها بالعلم ، وإنما علاقتها قائمة بالدين ، على أساس عزل الدين عن الحياة [١] .

* * *

كيف غزت العلمانية العالَم الإسلامى :

غزت العلمانية الغربية العالَم الإسلامى بوسائل شَتَّى تآزرت فيما بينها ، ملتقية عند أهدافها المشتركة للوصول إلى غايتها ، وكان أكثرها تأثيراً ما يأتى :

الاستعمار :

عاش العالَم فى عصور التاريخ المتعاقبة منقسماً إلى شطرين ؛ أحدهما : دول ذات سيادة وقوة وسلطان ، والآخر : دول وقعت فى قبضة الأولى ، فأذاقتها لباس الذل والهوان والخوف ، وهذه الظاهرة وما يصاحبها من علاقة هى التى تُسمى بالاستعمار .

---

(١) انظر « مذاهب فكرية معاصرة » ، ص ٤٤٥

وهذه التسمية لا تُعبر عن المعنى اللُغوى الصحيح ، فانه يقال فى اللُغة : استعمره فى المكان : إذا جعله يعمره ، وفى التنزيل العزيز : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (١) ، والتعبير الصحيح لهذا أن يسمى بالاستعباد ، فكثيراً ما كانت تسمى الدول المستعمِرة (بكسر الميم) الدول المستعمَرة (بفتحها) ممتلكات ، ممتلكات بريطانية ، وممتلكات فرنسية ، وممتلكات بلچيكية ، وممتلكات إيطالية ... وهكذا ، والعلاقة بين الطرفين لا يمكن وصفها إلاَّ بأنها كعلاقة الحر بالعبد ، والسيد بالمسود ، فالشعب المالك يتمتع بحريته ، ويسير وفق إرادته ، والمملوك مُسيَّر لا مُخيَّر ، ليس له من الإرادة فى تصريف أمره ، وتكييف مجرى حياته ، إلاَّ بمقدار ما يسمح له سيده المالك المهيمن (٢).

ويتفاوت نفوذ هذا الاستعمار ، فقد يؤدى إلى التسلط التام على الأرض وسكانها ، وقد تُترك الأرض لسكانها يستغلونها على أن يكون هذا الاستغلال وفق إرادة الدولة صاحبة السيادة ، وقد يكتفى المستعمر أحياناً بحق الاحتلال العسكرى ، أو حق « التدخل » فى طائفة من الشؤون يرى من الواجب أن تسير وفقاً لمصلحته ، وإن خالفت مصلحة السكان الأصليين .

والعالَم يتقدم بمرور الزمن ، وتتقدم معه أساليب الاستعمار نفسها ، فلكل دولة مذهبها فيه ، فى القهر والغَلَبة ، أو الاستغلال المادى ، أو التوجيه السياسى ، أو المسخ العقدى الفكرى ، والدول التى تحظى بميزات أوفر فى الموقع الجغرافى ، والتعداد السكانى ، ودرجة الثقافة والتعليم ، والقوة الاقتصادية ، والمركز المالى ، والفائض الزراعى والصناعى ، والتفوق الحربى - هذه الدول التى تسمى بالدول الكبرى ، وعددها لا يتجاوز أصابع اليد ، ولكنها تتحكم فى مصير سائر دول العالَم ، وبينها يُبرم الأمر فى المحافل الدولية ،

---

(١) هود : ٦١

(٢) انظر : الاستعمار والمذاهب الاستعمارية ، للدكتور محمد عوض محمد ، ص ١٢

أو فى التفاهم المباشر ، على الصَعيد السياسى فى القضايا العالَمية بالمناطق الساخنة ، وقد تختلف فيما بينها ، ولكن الأمر لا يخرج من يدها باستخدام حق « الڤيتو » [١] .

وقد يرتدى الاستعمار ثوب زور باسم الحماية أو الانتداب أو الوصاية ، أو التعاون المشترك ، أو المصالح المتبادلة ، أو البعثات الاستشارية ، دون أن يكون له وجود عسكرى .

وكان نصيب العالَم العربى من ذلك نصيباً كبيراً مع ما له من ميراث حضارى عريق ، إذ نشبت فيه مخالب الدول الاستعمارية وفعلت به الأفاعيل ، وكان نصيب إفريقية أسوأ حالاً .

والنظرة الاستعمارية إلى العالَم نظرة قاتمة بعيدة كل البُعد عن أدنى المعانى الإنسانية ، جاء فى كتاب منتسكيو الفرنسى المشهور : « إذا طُلِبَ منى أن أدافع عن حقنا المكتسَب لاتخاذ الزنوج عبيداً فإنى أقول : إن شعوب أوروبا بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين ، لم تر بُدّاً من أن تستعبد شعوب إفريقيه لكى تستخدمها فى استغلال كل هذه الأقطار الفسيحة ، والشعوب المذكورة ما هى إلا جماعات سوداء البَشرة من أخمص القدم إلى قمة الرأس ، وأنفها أفطس فطساً شنيعاً ، بحيث يكاد أن يكون من المستحيل أن ترثى لها ، ولا يمكن للمرء أن يتصور أن اللّه سبحانه وتعالى - وهو ذو الحكمة السامية - قد وضع روحاً - وعلى الأخص روحاً طيبة - فى داخل جسم حالك السواد » [٢] .

فأى سخرية تزرى بالإنسان كهذه السخرية فى نظر المستعمرين الذين يرون أن الشعوب السوداء أو الحمراء لا روح لها ، بل كان قادة الدين فى مراحل

---

(١) حق « الڤيتو » هو حق الاعتراض فى الأمم المتحدة على أى قرار ، وهذا الحق لكل من الولايات المتحدة ، الاتحاد السوڤييتى ، بريطانيا ، فرنسا ، الصين .

(٢) انظر : الاستعمار والمذاهب الاستعمارية ، للدكتور محمد عوض محمد ، ص ٣٧

الاستعمار الأولى بأمريكا الشمالية يشيرون إلى الهنود الحمر بأنهم من سلالة الشيطان ، وكانوا يأمرون بالقضاء عليهم بمختلف الوسائل .

لذا استقى الدكتور محمد عوض محمد من هذا النص وغيره تعريفاً مطوّلا للاستعمار يُوَضِّح أطماعه ومقاصده ووسائله ، فقال : « هو العمل أو مجموعة الأعمال التى من شأنها السيطرة أو بسط النفوذ بواسطة دولة أو جماعة منظّمة من الناس ، على مساحة من الأرض لم تكن تابعة لهم ، أو على سكان تلك الأرض ، أو على الأرض والسكان فى آن واحد » [1] .

ونص فى هذا التعريف على الدولة أو جماعة منظّمة من الناس حتى يشمل الاستعمار تلك الشركات التى تكوّنت فى العصور الحديثة ، مثل شركة الهند الشرقية ، وشركة إفريقية الشرقية ، وتسلطت على مرافق البلاد ، وكذا سائر الشركات والمؤسسات التى تكون على غِرارها .

وقد اتسع نفوذ الاستعمار الغربى فى أنحاء الدنيا ، وطوّق البلاد الإسلامية ، وسيطر عليها منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وواصل زحفه نحو الأطراف إلى أوائل القرن العشرين ، وتقاسمت الدول الاستعمارية فيما بينها العالَم الإسلامى .

فخضع لسلطان بريطانيا : شرق آسيا « اتحاد ماليزيا » سنة ١٨٦٧ ، والهند - حيث كانت دولة المغول المسلمة سنة ١٨٥٧ ، والكويت سنة ١٨٦٠ ، والإمارات والبحرين وقَطر سنة ١٨٢٠ ، ومحمية عدن سنة ١٨٣٩ ، ومصر سنة ١٨٨٢ ، والسودان سنة ١٨٩٩ ، والأردن وفلسطين سنة ١٩١٧ ، والعراق سنة ١٩٢٠ ، ونيجريا وغانا وسيراليون .

وخضع لسلطان فرنسا : الجزائر سنة ١٨٣٠ ، وتونس سنة ١٨٨١ ،

---

(١) المرجع السابق ص ٣٨ - ٣٩

وسوريا ولبنان سنة ١٩٢٠ ، ولفرنسا وأسبانيا : المغرب سنة ١٩١٢ ، كما خضع لفرنسا : السنغال ، ومالى ، وموريتانيا ، وساحل العاج ، وغينيا ، والكميرون ، وإفريقية الوسطى ، وتشاد .

وخضع لسلطان هولندا : أندونسيا سنة ١٧٥٠ .

وخضع لسلطان روسيا : بلاد تركستان : بخارى وسمرقند وطشقند ، سنة ١٨٦٨ .

وخضع لسلطان إيطاليا : ليبيا سنة ١٩١١ .

وخضع لسلطان البرتغال ثم بريطانيا : كينيا .

وتقاسمت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا الصومال بأقسامه وأثيوبيا [١] .

وهكذا قسِّم الاستعمار الغربى تركة الإسلام ، ولا سيما حين آل بناء الخلافة العثمانية للسقوط ، ثم سقطت وقامت الدولة العلمانية فى تركيا على يد مصطفى كمال أتاتورك سنة ١٩٢٣ وأُلغيت الخلافة سنة ١٩٢٤ ، فقضى على الحياة الإسلامية مظهراً وحقيقة ، شكلاً وموضوعاً ، وترسم خطى الحياة الغربية شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، وسار على دربه الذين صنعهم الاستعمار على عينه ، وانبهروا بعلمانيته ، فأخذ بيدهم إلى سُدَّة الحكم فى بلاد إسلامية عديدة .

واعتمد الاستعمار فى تمزيق شمل العالَم الإسلامى على إضعاف روابطه الدينية والفكرية والتعبدية والسلوكية .

نشرت جريدة « المؤيد » سنة ١٣١٧ هـ ترجمة لمقال كتبه « هانونو » المستشرق الفرنسى ومستشار وزارة الاستعمار الفرنسية ، يصف فيه المسلمين

---

(١) انظر : أطلس تاريخ الإسلام ، حسين مؤنس ، ص ٤٠ - ٤١

وعقيدتهم ، ويضع المقترحات الضرورية فى نظره لتوجيه سياسة فرنسا فى مستعمراتها الإفريقية الإسلامية تحت العنوان التالى : « قد أصبحنا اليوم إزاء الإسلام والمسألة الإسلامية » ومما جاء فى هذا المقال :

« وخلاصة القول إن جميع المسلمين على سطح المعمورة تجمعهم رابطة واحدة ، بها يديرون أعمالهم ويوجهون أفكارهم إلى الوجهة التى يبتغونها ، وهذه الرابطة تشبه السبب المتين الذى تتصل به أشياء تتحرك بحركته ، وتسكن بسكونه ، ومتى اقتربوا من الكعبة : من البيت الحرام ، من زمزم الذى ينبع منه الماء المقدس ، من الحجر الأسود المحاط بإطار من فضة ، من الركن الذى يقولون عنه إنه سُرَّة العالَم ، وحققوا بأنفسهم أمنيتهم العزيزة التى استحثتهم على مبارحة بلادهم فى أقصى مدى من العالَم للفوز بجوار الخالق فى بيته الحرام ، اشتعلت جذوة الحميَّة الدينية فى أفئدتهم ، فتهافتوا على أداء الصلاة صفوفاً .. وتقدمهم الإمام مستفتحاً العبادة بقوله : « بسم اللّه » فيعم السكوت والسكون وينشران أجنحتهما على عشرات الألوف من المصلّين فى تلك الصفوف ، ويملأ الخشوع قلوبهم ، ثم يقولون بصوت واحد : « اللّه أكبر » ثم تعنو جباههم بعد ذلك قائلين : « اللّه أكبر » بصوت خاشع يمثل معنى العبادة » [1] .

وتتذرع الدول الاستعمارية بمبررات مغرضة ، كالحرص على هيبة الدولة ، أو نشر المدنية والحضارة ، أو معالجة تزايد السكان ، أو الضرورات العسكرية لحماية المصالح والدفاع عنها ، وقاموس الاستعمار الحديث ملئ بالشعارات التى يحملها فى ألفاظ براقة حتى لا يوغر نفوس الشعوب بالكراهية والبغضاء .

---

(١) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ، الدكتور محمد البهى ، ص ٣٣ ، ط . دار الفكر .

ويقمع الاستعمار أى حركة وطنية بوحشية ضارية ، ينفر منها الطبع الإنسانى ، فإن الضوارى تفتك وتقتل بدافع الجوع أو رد العدوان ، أما إنسان الاستعمار المتحضر فيقتل ويفتك من أجل السيطرة والتحكم فى الإقليم وفى سكانه .

كما يسعى الاستعمار إلى تدمير الشعوب التى تسقط فى يده بأساليبه الماكرة ، فضلاً عن جرائمه الوحشية .

فقد يغزو الشعوب بالسموم الفتّاكة التى تقضى على أجسام الأُمة وعقولها وأموالها ، وتقودها إلى الدمار والوبال ، وهذا ما يسمى بحرب الأفيون ، أو حرب المخدرات ، وتجار المخدرات فى بعض الدول أقوى نفوذاً من نفوذ الدولة ، مدججون بالسلاح ، محصنون فى مراكزهم ، لا تجرؤ الشرطة على اقتحام أوكارهم ، ويسلك اليهود بالتعاون مع عملائهم هذا المسلك فى حرب الدول العربية بخاصة .

وقد يغزو الشعوب بثقافته التى تُمَجِّد فى الغرب وحضارته وترفعه إلى الذروة ، فتفتتن الشعوب بهذا ، وترى أن سبيل الحضارة والتقدم والرقى تقليد الغرب ومحاكاته تقليد القردة ومحاكاة الببغاوات ، ويقترن هذا دائماً بتوهين المقومات الاعتقادية والعلمية والحضارية فى البلد المغلوب على أمره ، كى ينسلخ من ماضيه وتراثه .

ويصطحب هذا فى البلاد الإسلامية بنقل الأنظمة والقوانين الغربية ، وتعطيل تطبيق الأحكام الشرعية ، بل بالهجوم عليها ووصفها بالقسوة والوحشية ، وإهدار كرامة الإنسان ، وعدم ملاءمتها للمدنية الحديثة .

وما دخل الاستعمار بلداً إسلامياً إلاّ انتهى أمره بهذه النتيجة ، فى التنخلى عن الشريعة الإسلامية ، وتصويرها بأنها شريعة جامدة لا تساير تطور العصر .

وأول عمل قام به الإنجليز فى الهند إلغاء الشريعة الإسلامية ، وأول عمل قام به نابليون فى مصر هو تعطيل الشريعة وإحلال القانون الفرنسى محلها ، وأول

عمل قام به صنيعة الاستعمار « أتاتورك » فى تركيا هو إلغاء الشريعة الإسلامية ثم إعلان تركيا دولة لا دينية .

* * *

● الاستعمار والمبشرون :

وكانت طلائع المبشرين تسبق الاستعمار لتُعَبِّد له الطريق ، وتتضافر جهودها معه ، مرتدية حُلَّة من الخدمات العامة الطبية والتعليمية والاجتماعية ، ولا تفتأ تبث أفكارها ضد الإسلام وكتابه ورسوله ، وتلتقى إرساليات التبشير من أنحاء العالم الإسلامى فى مؤتمرات دولية تتدارس فيها مشكلاتها وقضاياها ، وتخطط لكل بلد بما يلائمه حتى يقع فى شِركها لقمة مستساغة ، ولكنها جميعاً تلتقى فى غايتها بإخراج المسلمين بعامة والعرب منهم بخاصة من دينهم ، يقول المبشر بالكراف : « متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن العربى يتدرج فى سبيل الحضارة التى لم يُبعده عنها إلاَّ محمد وكتابه » [1] .

ويشق التنصير طريقه بوسائل عدة منذ القرن الثالث عشر الهجرى (التاسع عشر الميلادى) فلم يعد أمره قاصراً على الإقناع الفردى والوعظ العام :

فمن وسائله : العلاج الطبى ، وقد تكوَّنت جمعيات طبية فى أوروبا وأمريكا تختص بتأهيل الأطباء والممرضين للعمل فى مراكز التنصير ، فكثرت الإرساليات الطبية التبشيرية فى العالم الإسلامى ، تنشئ المشافى ، وتعالج المرضى ، وتُعفى الفقراء من نفقات العلاج ، وتظهر روح التسامح والشفقة لتنفذ إلى القلوب .

---

(١) الغارة على العالم الإسلامى ص ٣٧

ومن وسائله : التعليم فى مراحله الأولى ، الحضانة وما بعدها ، فى مستوى منظم نظيف ، يغرى أولياء الأمور بتعليم أبنائهم وبناتهم فى مدارس التنصير ، ويأتى الغزو الفكرى عن طريق المناهج وأعضاء هيئة التدريس .

ومن وسائله : المطبوعات من النشرات والكتب والصحف التى تغمز فى الإسلام ، وتظهر محاسن المسيحية ، وتمجد دولها الغربية ، وتوجد مؤسسات نصرانية متخصصة تقوم على نشر هذه الكتب والمؤلَّفات .

ومن وسائله : الدور الاجتماعية التى تقوم على رعاية اليتامى والعَجَزة والفقراء ، وتقدِّم لهم ما يحتاجون إليه من عون كالغذاء والكساء والإيواء والمال [١] .

ويستخدم الاستعمار عملاءه فى السلطة لضرب العمل الإسلامى ، وإلغاء مؤسساته ، وكان من توجيه « زويمر » للمبشرين قوله : « تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم ، لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها » [٢] .

وقلَّما تجد بلداً إسلامياً ظهر فيه قائد عبقرى فَذ قاوَم الاستعمار بحركة إسلامية واعية إلا حورب حرباً شعواء .

ففى ليبيا تولى « عمر المختار » (١٨٦٠ - ١٩٣١) قيادة حركة المقاومة الإسلامية ضد الإيطاليين ، فأخذوا يطاردونه ، ثم قدَّموه لمحاكمة صورية حُكِمَ عليه فيها بالشنق .

وفى المغرب قاوَم « عبد الكريم الخطابى » (١٨٨٢ - ١٩٦٣) الاستعمار الأسبانى بمنطقة المغرب الأسبانية ، وهزم جيوشه ، وتقدَّم إلى المنطقة الفرنسية ، ولكنهم استطاعوا السيطرة عليه ، ثم نُفِىَ ، وهرب ، ولجأ إلى مصر ، وظَلَّ فيها حتى توفى .

---

(١) انظر « ملامح عن النشاط التنصيرى فى الوطن العربى » ، د . إبراهيم عكاشة ، ص ٢٦ وما بعدها .

(٢) الغارة على العالَم الإسلامى ، ص ٨٠ .

وفى الجزائر هَبَّ المجاهد « عبد القادر الجزائرى » (١٨٠٧ - ١٨٨٣) فقاوَم الاحتلال الفرنسى للجزائر ، وقاتل الفرنسيين خمسة عشر عاماً ، ثم تمكنوا من القبض عليه ونفيه ، واستقر به الأمر فى دمشق حتى توفى .

وفى مصر قام الداعية الإسلامى المشهور « حسن البنا » (١٩٠٦ - ١٩٤٩) بتأسيس جماعة الإخوان المسلمين ، فربى جيلاً مجاهداً اشتركت كتائبه فى حرب فلسطين ، وانتشرت دعوته فى دول كثيرة ، وأقبل عليها الشباب المسلم ، فدبرت القوى الاستعمارية له مؤامرة القضاء عليه ، فقُتِلَ شهيداً برصاص البغى ، ولا تزال حركته تحت مطرقة العملاء .

وانقشعت سحابة الاستعمار عن البلاد الإسلامية التى استعمرها ، ولكنه ترك وراءه ركاماً من الفكر العِلمانى فى أذهان الطبقة المثقفة والقيادات التى أمسكت بزمام الأمور بعده فى السياسة والاقتصاد والإعلام والتربية والتعليم ، فظلت القوانين الوضعية سائدة فى البلاد ، واستمرت الشريعة الإسلامية بمنأى عن واقع الحياة ، وذاق الذين يطالبون بتحكيمها ويلات العذاب ، قتلاً وسجناً وتشريداً ، فى ظل التحرر والاستقلال ، ولكن هيهات لهم أن يصيبوا من الحركة الإسلامية مقتلاً .

* * *

● الاستشراق :

تعنى كلمة « الاستشراق » ذلك النشاط العلمى الذى اهتم بالدراسات الشرقية من قِبَلِ علماء الغرب الذين سموا لهذا العمل بالمستشرقين .

وتتناول الدراسات الشرقية : القرآن ، والسُنَّة ، واللُغة العربية ، والتاريخ والحضارة الإسلامية ، وما نبغ فيه المسلمون من فلسفة وطب ورياضيات وفَلك ... إلخ .

ولا يُعرف على وجه التحديد متى بدأت عناية الغرب بالدراسات الشرقية ، ويذكر بعض الباحثين أن احتكاك الغرب ببلاد الأندلس المسلمة أدى إلى إعجاب نفر من الرهبان الغربيين بما وصل إليه المسلمون من معرفة ، فتتلمذوا على يد العلماء المسلمين بالأندلس ، ثم عادوا إلى بلادهم فأسسوا المعاهد للدراسات العربية ، ونشروا ثقافة العرب المسلمين ومؤلفاتهم .

ثم جاء الغزو الغربى فاستعمر العالَم الإسلامى ، واحتل بلاده ، وأطلق يد علمائه للإغارة على المخطوطات العربية ، بالسرقة تارة ، وبالشراء تارة أُخرى ، واستولى هؤلاء على نوادر المخطوطات ، ونقلوها إلى مكتبات أوروبا ، فزادت العناية بالدراسات الشرقية ، ولا سيما الإسلام وتاريخه ، وحضارته ، وآداب لغته ، والتمسوا مطاعن فى الإسلام لتحريف حقائقه ، وتشويه جماله ، وطمس معالِم حضارته ، والاستعانة بتُراثه العلمى والأدبى ، وحرصوا على تحطيم روح المسلمين العالية ، فعمدوا إلى الأساليب التى تبعث على الوهن النفسى ، وتثبط العزائم ، حتى يرتمى المسلمون فى أحضان الغرب ، وينقادوا لحضارته صاغرين .

وهدف المستشرقون إلى أمور كثيرة صوَّبوا إليها سهام حقدهم :

(أ) التشكيك بصحة رسالة نبينا محمد ﷺ ومصدرها الإلهى ، فأنكروا أن يكون نبينا يُوحَى إليه ، وعزوا الحالة التى كانت تأتيه عند نزول الوحى إلى « صَرَع » كان ينتابه ، وجحدوا أن يكون القرآن كتاباً مُنزَّلاً من عند اللّه ، وزعموا أن ما فيه من حقائق علمية وتاريخية وأخلاقية مستمَدة من النصرانية ، تلقاها محمد ﷺ من حدَّاد رومى كان يعمل بمكة .

وهذا هو الزعم الذى زعمه المشركون ، وردَّه القرآن عليهم فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ (١) .

---

(١) النحل : ١٠٣

(ب) التشكيك فى صحة الحديث النبوى لما عُرِفَ فيه من أحاديث موضوعة اخترعتها الفِرَق الإسلامية المتناحرة ، وأن الأمويين استطاعوا أن يستغلوا الإمام الزهرى لصالحهم .

وابن شهاب الزهرى وأترابه من العلماء لم يكونوا لعبة فى يد حاكم ، بل عُرِفَ عنهم من التقوى والاعتزاز بالإسلام ما يؤكد أن أحداً منهم لم يُتخذ مطيَّة لهوى سلطان ، يكتسب به رضاه ، ويبوء بسخط الله .

(جـ) التشكيك فى قُدرة اللُّغة العربية على مسايرة التطور العلمى ، فهى لغة فقيرة مجدبة ، لا تستوعب المصطلحات العلمية ، ولا تتسع لصياغة العلوم .

والعربية هى أغنى لغات الدنيا بأبنيتها الاشتقاقية ، وأساليب بيانها ، ووجوه دلالتها ، وقد وسعت العلوم كلها يوم أن كان الغرب لا يعرف شيئاً منها .

(د) التشكيك فى قيمة تراثنا الحضارى ، وإنكار المقومات التاريخية والثقافية فى ماضى أُمتنا المجيدة ، والاستخفاف بها ، فالحضارة الإسلامية - كما يزعمون - منقولة عن حضارة الرومان ، وليس فيها ابتكار ولا إبداع ، وإنما يحاكى تراثها الفلسفة الرومانية ، وعلومها ، وقيمها .

ومقومات أُمتنا واقع سجَّله التاريخ لنا ، والحضارة ميراث مشتَرك بين البَشرية كلها ، أسهمت فيه كل أُمة بنصيبها ، والإسلام دين شامل يدعو إلى العلم والمعرفة ، ويمسك بعناصر الحضارة كلها ، ويوجهها وينميها فى ظل شريعته ، وقد أحرز علماء الإسلام قصب السبق فى كل حقل من حقول المعرفة ، فابتكروا وأبدعوا ، وأشادوا الحضارة الإسلامية السامقة التى استقى منها الغرب معارفه ، حين عبرت إليه عن طريق القسطنطينية شرقاً والأندلس غرباً .

(هـ) بعث روح الفُرقة لتمزيق شمل الأمة الإسلامية ، بإحياء القوميات ، وإثارة الخلافات والنعرات التى قضى عليها الإسلام واستعاض عنها برابطة

العقيدة ، وجعل من المسلمين أمة واحدة ، لأن وحدة العالَم الإسلامى بعامة والعربى منه بخاصة أكبر خطر يهدد الغرب ، يقول لورانس براون : « إذا اتحد المسلمون فى إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالَم وخطراً ، وأمكن أن يصبحوا نعمة له أيضاً ، أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا قوة ولا تأثير » (١) .

وقد آخى الاسلام بين أبناء أمته : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (٢) .

ونددَ بالعصبية وجعلها رسول اللّه ﷺ من دعوى الجاهلية .

وسلك المستشرقون لتحقيق أهدافهم وسائل كثيرة :

(أ) ألّفوا الكتب فى موضوعات مختلفة عن الإسلام ، منتحلين صفات العلماء والباحثين ، ولكنهم نفثوا سمومهم فيها ، فحرّفوا النصوص ، وشوّهوا الوقائع التاريخية ، ووضعوا مقدمات فاسدة ، واستنتجوا منها استنتاجات باطلهم ، وأردفوا هذه الكتب بالمجلات « مجلة شؤون الشرق الأوسط » ويصدرها المستشرقون الأمريكيون ، ومجلة « العالَم الإسلامى » التى أنشأها المستشرق الأمريكى « صمويل زويمر » .

(ب) وتسللوا إلى الصحف المحلية فى البلاد الإسلامية ، باستخدام تلاميذهم ، أو شراء النفوس الضعيفة المتأثرة بهم ، مستعينين فى ذلك بإرساليات التبشير التى تمهد الطريق لهم ، فتنشر المسيحية ، وتوطد دعائم الاستعمار .

جاء فى كتاب « التبشير والاستعمار » للدكتورين : عمر فروخ ومصطفى الخالدى ، فى إحدى الوثائق التاريخية عن نشاط المستشرقين والمبشرين لخدمة الاستعمار : « يعلن المبشرون أنهم استغلوا الصحافة المصرية على الأخص

---

(١) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ، ص ٥٢٥

(٢) الحجرات : ١٠

للتعبير عن الآراء المسيحية أكثر مما استطاعوا فى أى بلد إسلامى آخر ، لقد ظهرت مقالات كثيرة فى عدد من الصحف المصرية ، إما مأجورة فى أكثر الأحيان ، أو بلا أجرة فى أحوال نادرة » [١] .

والفرق بين التبشير والاستشراق ، أن الاستشراق أخذ صورة « البحث » وادعى لبحثه « الطابع العلمى الأكاديمى » .

أما التبشير .. فإن دعوته لا تتجاوز حدود مظاهر العقلية العامة ، وهى العقلية الشعبية .

واستخدم الاستشراق الكتاب والمقال فى المجلات العلمية ، والتدريس فى الجامعات ، والمناقشة فى المؤتمرات العلمية العامة .

أما التبشير فقد سلك طريق التعليم المدرسى فى دور الحضانة ، ورياض الأطفال ، والمراحل الابتدائية والمتوسطة والثانوية للذكور والإناث على السواء ، كما سلك سبيل العمل الخيرى الظاهرى ، فى المستشفيات ، ودور الضيافة ، والملاجئ للكبار ، ودور الأيتام [٢] .

(جـ) وعقد المستشرقون - ويعقدون - المؤتمرات التى تعالج القضايا الإسلامية والتقريب بين المسيحية والإسلام ، وتبحث فى فلسفة الأديان ، وتقارن بينها ، وتطرح هذه الموضوعات من زوايا النظرة الاستشراقية ، بما يحقق أهدافها ، وينشر رسالتها .

ولو وقف الأمر عند المستشرقين الغربيين لهان شأنه ، ولكن أهداف الاستشراق يقوم عليها المستغربون من أبناء جلدتنا ، الذين يدينون بالعبودية

---

(١) انظر : « الاستشراق والمستشرقون » للدكتور مصطفى السباعى ، ص ٢٩ ، وانظر « التبشير والاستعمار » ص ٢٠٧

(٢) انظر « الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى » ص ٥٢١

الفكرية للغرب ، ممن تعلّموا على يد المستشرقين من رجال الكهنوت فى أقسام الدراسات الشرقية بجامعات الغرب ، أو على يد موظفى الدوائر الاستعمارية والمؤسسات الصهيونية ، فاطمأنت نفوسهم إلى أن أفكار المستشرقين هى الأفكار العلمية الدقيقة الجديرة بالبحث والاهتمام .

ولسنا نجحد جهود بعض المستشرقين العلمية ، الذين كرّسوا حياتهم لدراسة العلوم الإسلامية ، ولم تؤثر عليهم دوافع الاستشراق ، مثل « توماس أرنولد » فى كتابه « الدعوة إلى الإسلام » و « استانلى لين بول » صاحب كتاب « المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى » الذى رتّبه لفيف من المستشرقين ، وصاحب كتاب « مفتاح كنوز السُنّة » .

ومن هؤلاء مَن أنار اللّه بصيرتهم وأسلم ، مثل « ليوبولد فايس » الذى تسمى باسم « محمد أسد » صاحب كتاب « الإسلام على مفترق الطرق » وكتاب « الطريق إلى مكة » ، و « دينيه » الذى تسمى باسم « ناصر الدين دينيه » وألّف مع عالِم جزائرى كتاباً عن سيرة الرسول ﷺ .

ومن أخطر المستشرقين المعاصرين :

« ا . ج ، أربرى » إنجليزى ، معروف بالتعصب ضد الإسلام والمسلمين ، ومن كتبه « الإسلام اليوم » .

و « الفرد جيوم » إنجليزى معاصر ، ومن كتبه « الإسلام » .

و « هـ . ا . ر . جى » أكبر مستشرقى إنجلترا المعاصرين ، وكان عضواً فى المجمع اللُغوى بمصر ، ومن كتبه « الاتجاهات الحديثة فى الإسلام » .

و « جولد زيهر » مجرى ، عُرِفَ بعدائه للإسلام ، وبخطورة كتاباته عنه ، ومن كتبه « مذاهب التفسير الإسلامى » .

و « ماكدونال » أميركى ، من أشد المتعصبين ضد الإسلام والمسلمين ، ومن كتبه « تطور علم الكلام والفقه والنظرية الدستورية فى الإسلام » .

و « لوى ماسنيون » أكبر مستشرقى فرنسا المعاصرين ، ومن كتبه « الحلاّج الصوفى الشهيد فى الإسلام » .

و « د . س . مرجليوت » إنجليزى ، متعصب ضد الإسلام ، ومن كتبه « التطورات المبكرة فى الإسلام » .

و « يوسف شاخت » ألمانى ، متعصب ضد الإسلام والمسلمين ، وأشهر كتبه « أُصول الفقه الإسلامى » .

و « عزيز عطية سوريال » مصرى مسيحى ، والآن يدرس بإحدى جامعات أمريكا ، وله كتاب عن الحروب الصليبية .

و « فيليب حتى » لبنانى مسيحى تأمرك ، كان رئيساً لقسم الدراسات الشرقية بجامعة برتستون بأمريكا ، من ألد أعداء الإسلام ، ومن كتبه « تاريخ العرب » .

ومن أشهر المؤسسات التعليمية التى تمارس التبشير وتقوم بوظيفة الاستشراق « الجامعة اليسوعية » فى لبنان ، و « الجامعة الأمريكية » بالقاهرة ، و « الجامعة الأمريكية » ببيروت ، و « الجامعة الامريكية » فى إستنبول ، و « الكلية الفرنسية » فى لاهور .

والمستشرقون يتناولون الإسلام باسم البحث العلمى ، وروح النقد النزيه ، والحوار الهادف لإضعاف القيَم الإسلامية ، والطعن فى عقيدة التوحيد نفسها ، وإظهار المسيحية فى صورة أفضل .

يزعمون أن العقيدة الإسلامية تجعل اللّه فى ذروة العظمة والعلو ، وتجعل الإنسان فى حضيض الضعف والوهن ، إذ أنها تصف اللّه بالوحدانية والتفرد

بالخلق والتدبير والتشريع ، وتصف الناس بأنهم عبيد له لا يملكون من أمر الحياة شيئاً ، يخضعون لقضائه وقَدَره ، أما النصرانية فترفع مرتبة الإنسان وتُقَرِّبه إلى الذات الإلهية ، بما فطره اللّه عليه من إيمان وإرادة ، وبما آتاه من أعمال صالحة ، إذ أن الإله الأب أوجد الإله الابن ، واتصل الاثنان بصلة هى روح القدس ، فيكون يسوع المسيح إلهاً وبَشراً ، وهذا يحمل الناس على إتيان الأعمال التى تُقَرِّبهم إلى اللّه ، حيث الوساطة بينهم وبين ذاته العلية موصولة ، فى حين أن المسلمين تجعلهم ديانتهم كمن يهوى فى الفضاء ، بحسب ناموس لا يتحول ولا يتبدل ، ولا حيلة فيه سوى متابعة الصلوات والدعوات والاستغاثة باللّه الأحد الذى هو مستودع الآمال ، ولفظة الإسلام معناها الإستسلام المطلق لإرادة اللّه .

وهذا تمويه وتضليل ، فإن عقيدة التوحيد مزية الإسلام ، وهى آية بَيِّنة على أنه الرسالة التى تُفسِّر العلاقة بين اللّه والكون تفسيراً صحيحاً ، وأنها المنهج السليم والطريق الوحيد إلى رفع شأن الإنسان وتكريمه بكمال عبوديته للّه وتجرده له ، لأن صاحب هذه العقيدة لا يخضع فى حياته لغير اللّه ، ولا يتوجّه فى طلب العون إلا إلى اللّه ، وهو يقرأ كل يوم فى ركعات فرائض صلاته سبع عشرة مرة على الأقل : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (١) .

ولا يقف المستشرقون عند إبعاد المسلمين عن دينهم ، وإنما يحرصون على استمرار هذا ، فيخشون من الدعوة التى تملأ أقطار الأرض بضرورة العودة إلى كتاب اللّه وسُنَّة رسوله ﷺ ، وإقامة الحياة الإسلامية على هذين الأصلين العظيمين ، وهى دعوة نادى بها شيخ الإسلام ابن تيمية ، وتابعه فيها غيره من المسلمين المصلحين بعده ، للقضاء على الانحراف العَقدى ، والركود الفقهى ، وتوجيه الأُمة الإسلامية إلى صفاء العقيدة والرجوع إلى ما كانت عليه ، قبل أن تلفها افتراضات الجدل العقيم الذى خاضه علماء الكلام ، وإلى أُصول الشريعة

---

(١) الفاتحة : ٥

التى استنبط منها فقهاء الإسلام ما يضبط ألوان النشاط البَشرى فى كل عصر ، قبل أن تُصاب الموهبة الفقهية بالفتور والكسل ، وتركن إلى التقليد والتعليق .

وهذه الدعوة هى نبراس اليقظة الإسلامية المعاصرة التى ترجع الناس إلى ما كان عليه سَلَف هذه الأمة فى العقيدة والشريعة ، ولكن المستشرقين عندما وقفوا على حقيقة هذه الدعوة ، ورأوا أثرها الإيجابى المشرق فى مستقبل حياة الأمة الإسلامية لو سارت فى طريقها الصحيح ، مالوا بها عن هذا الطريق ، وقالوا فى شرحها : إن معنى العودة إلى القرآن والسُنَّة وإلى عصر الصحابة الأول ، رضوان الله عليهم هو الرجوع إلى الحياة البدائية التى كانت لأمة الإسلام الأولى ، وأنكروا على كل مَن يدعو إلى هذا المفهوم فى الإصلاح ، إذ الإصلاح عندهم هو التطور فى الأخذ بأساليب المدنية الحديثة ، والقوانين المعاصرة ، وأسلوب الحكم الغربى ، وهذا هو ما يردده العلمانيون فى الأمة الإسلامية ، فتطبيق الشريعة الإسلامية تخلف ورجعية ، وعودة إلى الحياة البدائية [1] .

ويعمد بعض المستشرقين إلى القول بأن تطبيق الشريعة الإسلامية أمر بعيد المنال ، لأن نزعتها مثالية لا يمكن أن يكون لها واقع عملى فى الحياة ، فمصدرها الأم هو القرآن الكريم ، والقرآن وحى إلهى له معاييره الثابتة ، التى لا تقبل التغيير إلى الأبد ، والحياة متجددة متغيرة ، وهذا يجعل الشريعة الإسلامية عاجزة عن الوفاء بحاجات الناس التى لا بد فيها من النزعة الواقعية لتقدير الأمور ، ولذا كانت الحاجة ماسة إلى قواعد قانونية واقعية لفض المنازعات ، بعيداً عن المفاهيم المثالية الدقيقة للشريعة الإسلامية .

« والصحيح أن مثالية أحكام الشريعة الإسلامية لا تعنى عدم صلاحيتها للتطبيق بحال من الأحوال ، والواقع الذى مضى عليه العمل فى العالم الإسلامى

---

(١) انظر « الفكر الإسلامى الحديث » ص ٥٢ - ٦٠ ، ورد الدكتور محمد البهى على المستشرق « ريتان » .

كله إلى دخول الاستعمار الغربى بلاد الإسلام ينقض هذه الدعوى ، والعمل من وقت لآخر فى عدد من بلدان الإسلام للحكم بالشريعة الإسلامية وإصدار قوانين جديدة مستمَدة من أحكامها مبنية على مدوناتها الفقهية ، واستمرار العمل بها حتى اليوم فى المملكة العربية السعودية وغيرها من الدول الإسلامية ينقضها كذلك .

وإنما معنى المثالية هو نزوع هذه الأحكام الشرعية الإسلامية بالإنسان إلى العلو فوق الشهوات والنزوات ، وتحكيم المعايير الصحيحة للعقل والعدل بدلاً من تحكيم الهَوى والغرض ، فأحكام الإسلام - جملة ترمى إلى تخلق المرء بخُلُق الإنسان الفاضل ، إن لم يستطع الوصول إلى خُلُق الإنسان الكامل ، فهذا معنى للمثالية نثبته ولا ننفيه » [1] .

ويكمن خطر الاستشراق فى أنه يرتدى لباس العِلم ، ويقتحم جامعاته ، ويتصل بالطبقة المثقفة ، ويحارب الإسلام حرباً مقنَّعة بوسائل الخداع والتمويه ، وقد وجد ركائز له فى كثير من البلاد الإسلامية ، ووقع فى حبائله نفر ليس بالقليل من الذين تسلَّموا مناصب القيادة والتوجيه .

* * *

• المؤتمرات المشبوهة للدراسات الإسلامية :

تسعى كل أمة إلى معالجة قضاياها ، والبحث عن أفضل السُّبُل لحل مشاكلها ، وفى مقدمة ذلك القضايا والمشاكل الحيوية التى تتصل بكيان حياتها ، وحقيقة وجودها ، ولا سيما ما يتصل بالعقيدة والدين والتشريع .

---

(١) انظر « مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية » الجزء الأول ، بحث الدكتور محمد سليم العوا ، فى مناقشة دراسة المستشرق « نويل ج . كولسون » للفقه الإسلامى ، ص ٢٥٣ وما بعدها .

فلا ينبغى لنا - نحن المسلمين - أن نتوقع من الدول غير الإسلامية ذات الأطماع فى بلادنا أن تعطى قضايانا أهمية حتى تعقد الندوات والمؤتمرات لدراستها وبحثها ، ما لم يكن وراء ذلك مأرب آخر .

والعداء السافر الذى يكشف عن أنيابه يبعث على الحذر منه والوقوف فى وجهه ، ويستنفر طاقات الأمة لصد خطره ، ولكنه إذا كان مغلفاً بشعارات براقة استطاع أن يعمل مستخفياً بأساليب الدس والمداهنة ، حتى يصيب سهمه الغرض الذى يريد .

وإذا تسنى لخصوم الإسلام أن يجدوا من أبناء جلدتنا مَن يستجيب لهم ، ويتعاون معهم فى خططهم كان الأمر أشد خطورة وأبلغ أثراً .

فلا غرابة أن نرى الدول الكبرى التى لا تدين بالإسلام تبدى اهتمامها بالشريعة الإسلامية ، وتعقد لها المؤتمرات ، وتدعو لها الباحثين ، وتستقطب بعض المسلمين للمشاركة فيها ، كى تظهو بمظهر البحث العلمى النزيه ، ثم تنفث ما تنفثه من سموم بعد ذلك ، للتشكيك فى صلاحية الشريعة الإسلامية والانحراف بها عن مسارها .

ومن أمثلة ذلك المؤتمر الذى عُقِدَ بأمريكا فى صيف سنة ١٩٥٣ ، واشتركت فى الدعوة إليه جامعة برتستون ومكتبة الكونغرس ، وقد شهده عدد من المسلمين فى شَتَّى بقاع العالَم الإسلامى ، من أندونسيا والهند والباكستان وإيران والعراق وسوريا ولبنان ومصر ، وحُشِدَ له عدد مماثل من الأمريكيين المشتغلين بالدراسات الإسلامية .

أُلقيت بحوث المؤتمر ، ونوقشت ، وتم اختيار عدد من هذه البحوث لنشره فى كتاب ، وعُهِدَ بالإشراف على إخراجها وترجمة ما كُتِبَ منها بالإنجليزية إلى الأستاذ محمد خلف الله عميد كلية الآداب بجامعة الإسكندرية آنذاك ، ثم قامت مؤسسة فرانكلين بطبع الكتاب ونشره .

وأكثر الذين اشتركوا فى المؤتمر من الأمريكان قسس معروفون بنشاطهم التنصيرى ، قضوا وقتاً طويلاً فى الشرق الإسلامى وخبروا أحواله وسبروا غوره ، ومنهم عدد كبير تولى التدريس فى الجامعة الأمريكية فى بيروت أو فى القاهرة .

والذى يتصفح أبحاث الكتاب يرى ما فيها من دس ، فى التشكيك بأُمهات العقيدة ، وزعزعة الثقة فى صلاحية الشريعة الإسلامية للتطبيق أو محاصرتها لتكون قاصرة على العبادات .

ولا يجد بعض المؤتمرين غضاضة فى أن يفصح عن رأيه فى ضرورة إعادة النظر فى الإسلام وتطويره ، على أن يقوم بهذا نفر من المسلمين بعد أن تضعف ثقتهم فى دينهم ، يقول أحدهم فى بحثه مُعرباً عن ذلك : « إن عدم التمكين للعقيدة من ناحية ، ومحاصرتها من ناحية أُخرى - هو أصلح تمهيد لإقناع المسلمين بتطوير قِيَم الإسلام ، فهذا التطوير لا بد - لكى يُثمر ثمرته المرجوَّة - أن يحدث بأيدى المسلمين أنفسهم ، وهم لا يفعلونه إلا إذا ضعف يقينهم بالإسلام ، فاعتقدوا أنه يتعارض مع حاجات الحياة من ناحية ، أو تعوَّدوا إهماله وعدم التقيد بالتزام قواعده فى شؤون الحياة من ناحية أُخرى ، اقتناعاً منهم بأن دائرته لا تتجاوز شؤون العبادات ، ولا تتعداها إلى المعاملات » [1] .

وهذه العبارة تكشف عن نوايا المؤتمرين ، فيما يبذلونه من جهد لما يسمونه تطوير الشريعة الإسلامية ، فإن الهدف الأساسى من هذا هو محاصرة الدين ، وتضييق دائرة نفوذه وقصرها على شؤون العبادة ، دون المعاملات التى يقوم عليها تنظيم المجتمع ، وبناء الأُمة ، وتحقيق هذا يكون بأيدى نفر من المسلمين الذين تهتز قِيَم الإسلام فى نفوسهم ، ويقتنعون بأن شريعته لا تفى بحاجات العصر ، ولا تلبى مطالب الحياة ، فيعملون على حصره فى الجانب التعبدى -

---

(١) حصوننا مهددة من داخلها ، فى أوكار الهدامين ، للدكتور محمد محمد حسين ، ص ٢٧

وهو المفهوم العلمانى للدين فى الغرب - ويقصونه عن نواحى الحياة التطبيقية فى المعاملات التى تشمل ما يُعرف فى المفهوم الغربى بالقانون المدنى ، والقانون الجنائى .

ويدرك الناقد البصير ما حققته هذه الأفكار من نجاح فيما وصلت إليه أكثر البلاد الإسلامية من تعطيل تطبيق أحكام الشريعة ، وحصر الدين فى الصلة بين العبد وربه .

* * *

● الابتعاث :

لقد شهد العالَم ألواناً من الحضارات فى القديم والحديث ، ولم يشهد حضارة مُثلى لبناء مجتمع أفضل كحضارة الإسلام .

فالحضارة فى مفهومها الأخص هى مجموعة العلوم والمعارف والأنظمة التى تساعد الإنسانية على الرقى والتقدم ، وهذا يشمل جوانب المعارف المختلفة التى تُسهم فى بناء الحياة الإنسانية كالثقافة الدينية والعلوم الكَونية ، والنظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

والحضارة بهذا المعنى وُلِدَت بميلاد الإنسان الأول ، حيث أحس بحاجته إلى المطعم والمشرب والمأوى ، واستشعر ضرورة ما يستر به عورته ، وضرورة تفاهمه مع غيره ، وأخذت هذه الحاجات تنمو فى حسه ، وتستيقظ فى شعوره ، حتى تطوَّرت أساليبها ووسائلها من طَور إلى طَور .

وقد أودع اللّه فى الإنسان غريزة حب الاستطلاع ، وهذه الغريزة تبعث فى نفسه روح المعرفة ، وتحمله على البحث تطلعاً إلى إدراك المجهول ، وكلما أدرك شيئاً بحث فيما وراءه ، وهكذا تزداد خبراته وتجاربه ، ثم يستخدم هذه التجارب وتلك الخبرات فيما يحقق له مزيداً من الراحة والمتعة والرفاه .

وهذه الحضارة تتوارثها الأجيال ، يرثها اللاحق عن السابق ، وما من أمة من الأمم فى عصر من العصور إلا ولها تأثيرها على هذا المد الحضارى المتوارث ، تارة بالنماء والازدهار ، وتارة بالجمود والتوقف ، وأخرى بالانحراف وسوء التوجيه .

وقد عَنِىَ الإسلام بالعلم ، ودعا إليه ، وشجَّع على تحصيله ، وأكبر قدوة فى ذلك رسولنا محمد ﷺ ، فيما رواه أهل السيَر ، إذ حرص على تعليم الصحابة الكتابة ، ففرض على كل أسير من أسرى بدر يجيد القراءة والكتابة ولا يستطيع أن يفدى نفسه أن يُعَلِّم عشرة من أبناء المسلمين ، وهذا معناه أن تعليم عشرة يعدل رقبة .

وحَثَّ الإسلام على تعلم لغة الآخرين وعلومهم لتحقيق المقاصد الشرعية .

روى البخارى تعليقاً ، والبغوى وأبو يعلى موصولاً عن أبى الزناد عن خارجة ابن زيد عن أبيه قال : « أُتِىَ بى النبى صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم مقدمه المدينة ، فقيل : هذا من بنى النجار ، وقد قرأ سبع عشرة سورة ، فقرأتُ عليه ، فأعجبه ذلك ، فقال : « تعلَّم كتاب يهود ، فإنى ما آمنهم على كتابى » ففعلتُ ، فما مضى لى نصف شهر حتى حذقته ، فكنتُ أكتب له إليهم ، وإذا كتبوا إليه قرأتُ له » .

وفى مسند عبد بن حميد عن زيد بن ثابت قال : « قال لى النبى ﷺ : « إنى أكتب إلى قوم فأخاف أن يزيدوا علىَّ أو ينقصوا ، فتعلَّم السريانية ، فتعلمتُها فى سبعة عشر يوماً » [1] .

واذا كان العِلم لا وطن له ، فنقل العِلم من الحضارات كلها هو المعهود فى توارث المعرفة ، وذلك بإحدى الطرق الآتية :

---

(١) انظر : كتاب « الإصابة فى تمييز الصحابة » لابن حجر ، ومعه كتاب « الاستيعاب » لابن عبد البر ، جـ ١ ص ٥٤٣

١ - الترجمة : وهى النقل من لغة إلى أُخرى ، وهذه الطريق ارتضاها المسلمون الأوائل بعد احتكاكهم بالثقافة اليونانية والثقافة الفارسية ، فنقولوا العلوم العقلية كالفلسفة ، والهندسة ، والفَلَك ، والطب ، والكيمياء ، والرياضيات ، والتاريخ ، والجغرافيا ، نقلوها إلى اللُّغة العربية ، وكان خالد بن يزيد بن معاوية أول مَن عَنِىَ بنقل علوم الطب والكيمياء إلى العربية ، فدعا جماعة من اليونانيين المقيمين فى مصر من مدرسة الإسكندرية وطلب إليهم أن ينقلوا له كثيراً من الكتب اليونانية والقبطية ، وترجموا كتب جالينوس فى الطب [١] .

وعَنِىَ المسلمون بنشر الثقافة الطبية بترجمة ما خلفه الأقدمون وأسسوا المعاهد العلمية لتخريج الأطباء ، وكان الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ) أول مَن بنى البيمارستان فى الإسلام ، وجعل فيه الأطباء ، وأجرى عليهم الأرزاق .

فلما جاءت الدولة العباسية ازداد اشتغال المسلمين بالعلوم العقلية ، واتجه الخلفاء العباسيون إلى معرفة علوم الفُرس واليونان ، فعَنِىَ أبو جعفر المنصور بترجمة الكتب ، ونقل له حنين بن إسحاق بعض كتب أبقراط وجالينوس فى الطب ، كما نقل ابن المقفع كتاب كليلة ودمنة من البهلوية ، وترجم كتاب إقليدس فى الهندسة ، وترجم الحسن بن سهل وغيره كتباً أُخرى .

ثم زادت العناية بترجمة الكتب فى عهد هارون الرشيد بعد أن وقع فى حوزته بعض المدن الرومية الكبرى ، فأمر بترجمة ما عثر عليه المسلمون من كتب اليونان ، كما نشطت حركة الترجمة بتشجيع البرامكة للمترجمين وإدرار الأرزاق عليهم .

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، للدكتور حسن إبراهيم حسن ، جـ ١ ص ٥١٠ .

وفى عهد المأمون قويت حركة النقل والترجمة من اللُّغات الأجنبية ولا سيما اليونانية والفارسية ، فأرسل البعوث إلى القسطنطينية لإحضار المصنَّفات الفريدة فى الفلسفة والهندسة والطب والفَلَك ونحوها .

ولم تكن العناية بالترجمة مقصورة على المأمون ، بل عَنِىَ جماعة من ذَوى اليسار فى عهده بنقل كثير من الكتب إلى العربية ، ومن هؤلاء : محمد وأحمد والحسن أبناء موسى بن شاكر ، الذين أنفقوا الأموال الضخمة فى الحصول على كتب الرياضيات ، وأنفذوا حنين بن إسحاق إلى بلاد الروم ، فجاءهم بطرائف الكتب ، وفرائد المصنَّفات .

وظهر فى عهد المأمون طائفة من جهابذة الرياضيين من أمثال : محمد بن موسى الخوارزمى الذى يُعَدُ أول مَن درس الجبر دراسة منظَّمة وجعله علماً منفصلاً عن الحساب .

واشتهر من المترجمين فى الإسلام أربعة هم : حنين بن إسحاق ، ويعقوب الكندى ، وثابت بن قُرَّة الحرَّانى ، ومحمد بن عمر بن الفرحان الطبرى .

واشتهر من المسلمين علماء كثيرون : كجابر بن حيَّان فى الكيمياء ، وحجاج ابن أرطاة فى الهندسة ، والحسن بن سهل وجعفر بن عمر البلخى فى علم النجوم ، وابن بختيشوع وابن ماسويه وحنين بن إسحاق ومحمد بن زكريا الرازى وابن النفيس فى الطب ، والحسن بن الهيثم فى الفيزياء ، وأبى الريحان البيرونى ومحمد بن جابر البتانى وأولاد شاكر فى الرياضيات والفَلَك .

وهذه الطريق – طريق الترجمة – هى أفضل الطُرق لنقل العلوم ، لأنها تتيح فرصة الاختيار من العلوم المترجَمة ، وتجعلنا فى مأمن من الانزلاق وراء الأخطاء السابقة ، أو الانحرافات الاعتقادية والفكرية ، فنأخذ الصالح وندع ما سواه .

وفى الوقت الذى كانت فيه أوروبا تغط فى سُبات الجهل ، وترسف فى أغلال الظلم ، وكانت تنصب المشانق لقتل العلماء الذين يخرجون على سلطان الكنيسة - فى هذا الوقت الذى يسمى بالقرون الوسطى ، كانت الحضارة الإسلامية فى أوج عظمتها ، تزهو بعلومها ، ويشع منها نور المعرفة فى كل مصر .

وما كان للغرب أن ينهض من كَبوته ، ويستيقظ من غفلته لولا احتكاكه بالحضارة الإسلامية عن طريق القسطنطينية وصقلية والحروب الصليبية شرقاً ، وعن طريق بلاد الأندلس غرباً .

٢ - استقدام العلماء : فهذه طريقة أخرى لنقل العلوم ، أن تستقدم الدولة من الدول التى نبغت فى علوم بعينها عدداً من العلماء لتدريس هذه العلوم فى بلادها ، وهذا أمر معهود فى الحياة العلمية حتى اليوم ، فأكثر جامعات العالَم تستقدم للتدريس فيها من البلاد الأجنبية خيرة العلماء المتميزين الذين لهم شُهرة علمية عالَمية ، وهذا النهج يلى النهج الأول - الترجمة - فى الأمن من المخاطر والتخوف من الغزو الفكرى ، لأن هؤلاء العلماء يعيشون بين ظهرانينا ، تحت سمعنا وبصرنا ، نرقب أحوالهم وننتقى منهم أصلحهم ، ونُقَوِّم المعوَج منهم أو نكون فى حِلٍّ من أن نستغنى عنه ونستبدل به خيراً منه .

ويكمن الخطر فى هذه الطريق من طرق نقل المعرفة إذا تُرِكَ الأمر للأساتذة الأجانب وأُرخِيَ لهم العَنان فى وضع مناهج التعليم وألوان النشاط الثقافى والاجتماعى ، فإن الوافدين فى هذه الحالة سوف لا يألو أحدهم جهداً فى تغريب مؤسساتنا التعليمية ، وهذا ما حصل فى تركيا قبل حركة أتاتورك ، حيث أنشئت عام ١٨٤٥ جامعة فى تركيا على الطراز الغربى ، هى « دار الفنون » وفى كلية الحقوق التابعة لها بدأ تدريس مواد ليس لها علاقة بتركيا المسلمة ، مثل القانون الرومانى ، والقانون الفرنسى ، على أيدى أساتذة غير مسلمين ،

للأخذ بهذه القوانين وإحلالها محل الفقه الإسلامى ، ولو كانت الدراسة على وجه المقارنة لإثبات سيادة الفقه الإسلامى وتفوقه لكان هذا أمراً مقبولاً [1] .

٣ - الابتعاث : هذه هى الطريقة الثالثة لنقل العلوم ، وهى طريقة محفوفة بالمخاطر ، حيث تبعث الدولة طُلاَّبها للدراسة العلمية التخصصية فى المعاهد والجامعات الغربية ، وهذا معهود مألوف منذ زمن طويل .

عندما تولى « محمد على » (١٧٦٩ - ١٨٤٩) ولاية مصر (١٨٠٥ - ١٨٤٩) استعان بالأجانب والفرنسيين منهم خاصة فى تنظيم الجيش والبحرية والرى والتعليم ، وأرسل كثيراً من البعثات العلمية .

كان على رأس باكورة هذا الابتعاث « رفاعة الطهطاوى » (١٨٠١ - ١٨٧٣) ويسمى شيخ المترجمين المصريين فى مطلع النهضة الحديثة ، وهو أزهرى النشأة ، عُيِّنَ إماماً لأول بعثة تعليمية أرسلت إلى فرنسا ، وبعد أن عاد عُيِّنَ مديراً لمدرسة الترجمة (الألسن فيما بعد) وكتب وصفاً لرحلته إلى فرنسا « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » شرح فيه النُظم السياسية والاجتماعية الحديثة مفتتناً بها ، داعياً إلى الأخذ بما فيها .

يقول مُثنياً على الدستور الفرنسى « الشرطة » : « فيه أمور لا ينكر ذوو العقول أنها من باب العدل ... ومعنى الشرطة فى اللُّغة اللاتينية ورقة ، ثم تسومح فيها فأُطلقت على السجل المكتوب فيه الأحكام المقيِّدة ، فلنذكره لك ، وإن كان غالب ما فيه ليس فى كتاب اللّه تعالى ولا فى سُنَّة رسول اللّه ﷺ ، لتعرف كيف قد حكمت عقولهم بأن العدل والإنصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد ، وكيف انقادت الحُكَّام والرعايا ، لذلك عمرت بلادهم ، وكثرت

---

(١) انظر : الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم ، أبحاث ووقائع اللقاء الرابع لمنظمة الندوة العالمية للشباب الإسلامى ، جـ ٢ ص ٢٥ .

مصارفهم ، وتراكم بناهم ، وارتاحت قلوبهم ، فلا تسمع فيها مَن يشكو ظلماً أبداً ، والعدل أساس العمران » [١] .

وجاء بعد رفاعة الطهطاوى تلميذه « محمد عثمان جلال » (١٨٢٩ - ١٨٩٨) فترجم المؤلفات الفرنسية الأدبية ذات الشُهرة ، مثل : بول وفرچينى ، وقصص لاڤونتين ، وموليير ، ليصوغ الأدب العربى صياغة غربية ، وصادف هذا هوًى لدى الخديوى إسماعيل فقال : إن مصر أصبحت قطعة من أوروبا .

وكانت حركة التغريب الأولى فرنسية الاتجاه ، فلما احتل الإنجليز مصر أصبحت حركة التغريب إنجليزية الاتجاه .

تتابع ابتعاث الطُلاب من البلاد الإسلامية إلى الدول الغربية الرأسمالية والاشتراكية - ولا يزال - فتربى على يد الغربيين صفوة الشباب ، وعادوا بفكر ممسوخ ، ونظرة جديدة إلى الحياة .

فالطالب فى سن المراهقة ومقتبل الشباب يخرج من مجتمعه الإسلامى المحافظ ، ليستقبل مجتمعاً غربياً آخر ، يختلف فى مفاهيمه وقيمه وأخلاقه اختلافاً بيِّنًا عن مجتمعه ، فينبهر بالجديد ، ويقع بصره على مظاهر الحضارة الغربية بفتنها ومغرياتها ، ويصير فى حيرة من أمره ، يُقَدِّم رِجلاً ويؤخر أُخرى ، وليس من السهل عليه أن ينسلخ من بيئته ويندمج أو يذوب فى بيئة جديدة طفرة واحدة .

ويحتاج هذا الطالب المبتعَث قبل أن يشرع فى دراسته العلمية إلى أن يتقن اللُغة الأجنبية ، لغة الدراسة ، وهذا يستلزم منه أن يقضى فترة دراسية فى اللُغة لمدة عام على الأقل ، والمدارس أو المعاهد التى تقوم بهذا التأهيل مدارس مختلطة ، يلتقى فيها الفتيان والفتيات ، فى قاعة الدراسة ، وفى صالات الطعام ، وفى الأندية الرياضية ، وفى المسبح ، وفى المساكن الداخلية ...

---

(١) تخليص الإبريز فى تلخيص باريز ، ص ١٤٠

فكيف يكون حال شاب مسلم ينتقل فجأة إلى هذا الجو المشحون بطاقة الغريزة الجنسية المتقدة التى يزكيها هذا الاختلاط مع الأناقة والجمال فيتطاير شررها ؟ إنه سيقع فى صراع نفسى مرير .

وكثيراً ما يسكن الطالب مع أسرة أجنبية رغبة فى تعلُّم اللُّغة ليتحدث مع أفرادها ، ويساير أمور معيشتها ، فيبرد فى حسه الشعور بالانتماء الإسلامى ولا يلبث حتى يألف عادات وتقاليد الغرب .

والدراسة فى الجامعات على غِرار الدراسة فى مدارس اللُّغات ، فهذه تسلمه لتلك .

والدهشة التى تغمر الطالب من إنجازات الحضارة الغربية تملك عليه لُبَّه ، وتأخذ بتلابيبه ، لينخرط فى سلكها مذهولاً مفتوناً .

ولا نستطيع أن نقول : إن هذا هو شأن كل طالب يدرس فى الغرب ، فهناك طُلاَّب يتمتعون بحصانة إسلامية عالية ، ويقظة فكرية واعية ، واعتزاز بالإسلام وأمته ، يُفَرِّقون بين العلم والسلوك الحضارى ، وهم طُلاَّب علم ، فما لهم وللمفاهيم الغربية والفكر الغربى ونظرته إلى الكون والإنسان والحياة ، ولكن هذا النفر من الدارسين هم نُخبة ممتازة قليلة العدد ، تستعلى بقيمها الإسلامية الرفيعة ، وتكوِّن لنفسها روابط تربطها بالعقيدة والخُلُق فى ألوان من النشاط الدينى والثقافى والاجتماعى .

وإذا عاد الطُلاَّب المبتعثَون بعد استكمال دراستهم ، وقد لقحوا بالفكر العِلمانى ، وتولوا أعمالهم فى مجالات الحياة ، يَمِّمَ كل منهم وجهه شطر الغرب ، لينسج على منواله ، ويصوغ الحياة فى بلده صياغة غربية .

لقد هاله ما وصل اليه الغرب من رقى حضارى بعد أن فصل الدين عن الحياة ، ووقر فى نفسه أن هذه الصورة هى التى يجب أن يتصورها لمستقبل

أمته الحضارى ، وإذا فاته أن يُعَبِّر عن ذلك بالتعبير الكنسى : « دع ما للّه للّه ، وما لقيصر لقيصر » فإنه يُعَبِّر بعبارة أخرى تفيد معناها : « الدين للّه ، والوطن للجميع » .

* * *

• سيطرة العِلمانية على نواحى الحياة :

لقد تسللت العِلمانية إلى جوانب الحياة الإسلامية ، بل سيطرت عليها .

• عِلمانية الحكم :

نشأ الاتجاه العِلمانى فى الحكم بالبلاد الإسلامية أول الأمر بدافع من الرغبة فى التجديد والإصلاح فى فترة الركود الفقهى عندما أصدر السلطان عبد المجيد سنة ١٢٥٥ هـ (١٨٣٩ م) مرسوماً بتكوين لجنة لدراسة الحالة التشريعية فى البلاد ، وصياغة فقه المعاملات فى مواد على نمط القانون المدنى ، وهو ما خرج باسم « مجلة الأحكام العدلية » .

والتنظيم فى ذاته أمر مرغوب فيه ، ولكن الصياغة القانونية تهيئ الأذهان لقبول القانون الوضعى نفسه ، وهو ما استغله المثقفون ثقافة غربية .

واستطاع حفنة من يهود الدونمة بعد ذلك أن يتخذوا بعض المسلمين أداة لتدمير الخلافة العثمانية انتقاماً من السلطان عبد الحميد الذى لم يستجب لمطالبهم ، حتى تقوم دولة عِلمانية على النمط الأوروبى ، فكانت جمعية الاتحاد والترقى ، وتركيا الفتاة ، وهى حركة عِلمانية قادها اليهود وموّلها أغنياؤهم ، وتمكنت فى زمن قصير من إقصاء السلطان عبد الحميد عن الخلافة سنة ١٣٢٥ هـ (١٩٠٩ م) ، وتبنت هذه الحركة الدعوة إلى القومية الطورانية .

كان من الضرورى أن يُهيأ بطل يتزعم الموقف لنجاح المخطط ، فظهر مصطفى كمال أتاتورك فى ساحة الأحداث وعزل السلطان محمد السادس ، وأقام الدولة العِلمانية التركية سنة ١٩٢٣ .

ثم ألغى الخلافة الإسلامية سنة ١٩٢٤ ، واضطهد علماء المسلمين أبشع اضطهاد ، وأغلق كثيراً من المساجد ، وحرَّم الأذان باللُّغة العربية ، واستبدل بالحروف العربية التى استخدمها الأتراك قرابة ألف سنة الحروف اللاَّتينية ، وفرض لبس القبعة الأوروبية ، وأكره النساء على تقليد المرأة الغربية ، واستبدل بالشريعة الإسلامية القوانين الوضعية .

وإذا كانت مصر قد اتجهت اتجاهاً غربياً من أيام محمد على ، فإن سياسة الخديوى إسماعيل الفاشلة أغرقت البلاد فى الديون الأجنبية ، وأدت إلى تدخل بريطانيا واحتلالها لمصر .

أخذ النفوذ الإنجليزى يتسع ويزداد مستهدفاً القضاء على الشريعة الإسلامية ، مستعيناً ببعض العلماء المتحررين المعجبين بالغرب ، فنشأ مجلس شورى القوانين ، ثم حلت القوانين الوضعية محل الشريعة الإسلامية التى لم يبق لها مجال للتطبيق إلا فى نظام الأسرة الذى يُعرف بالأحوال الشخصية .

وزاد الأمر ضِغثاً على إبالة بكتاب أصدره عالِم أزهرى هو « على عبد الرازق » بعنوان « الإسلام وأصول الحكم » استقى فيه أفكاره من المستشرقين والمبشرين والعِلمانيين ، ولوى أعناق النصوص ليبرهن على أن الإسلام لا صلة له بنظام الحكم ، وأن ما جاء فيه متصلاً بالحكم كالذى نُقِلَ عن عيسى ابن مريم الذى أمر بأن يعطى ما لقيصر لقيصر ، والذى جاء فى أحاديث النبى ﷺ عن الإمامة والخلافة والبيعة لا يدل على شئ أكثر مما دلَّ عليه كلام المسيح حينما ذكر بعض الأحكام الشرعية عن حكومة قيصر ، أما ما قاله الفقهاء عن الإمامة والخلافة فلا يعدو أن يكون إرشاداً إلى حاجة الرعية فى صلاحها إلى الحكومة فى أى صورة كانت ولا يعنى هذا الصورة المقيدة الخاصة باسم الحكم الإسلامى .

ثم نضح إناء آخر بمثل هذا المحتوى ، فظهر كتاب « خالد محمد خالد » : « من هنا نبدأ » ، مستهدفاً ما قصده على عبد الرازق من قبل .

وبمثل تلك النهاية فى تركيا ومصر كانت نهاية البلاد الإسلامية التى غزاها الاستعمار فى إقصاء الشريعة الإسلامية وإحلال القوانين الوضعية محلها ، وهذه هى مأساة تعطيل تطبيق شريعة الإسلام [(١)] .

* * *

● عِلمانية التعليم والثقافة :

اقترنت الحياة العلمية فى الإسلام بالمسجد ، وارتكزت دعائمها على علوم اللُّغة العربية ، وعلوم الشريعة الإسلامية ، ثم اتسع نطاق العلوم بعد عصر الترجمة فشملت الدراسة العلوم الكَونية .

وكان الأهر منذ تأسيسه يدرس فى حلقاته المكتظة ، الفَلَك ، والجبر ، والهندسة ، والطب ، كما يدرس الفقه والنحو والحديث والتفسير سواءً بسواء ، والجامع الأزهر هو أكبر جامعة إسلامية وإن لم يكن أقدمها .

فمن قبل كان جامع الزيتونة فى تونس سنة ٧٣٢ م ، ولكنه لم يصبح جامعة يزدهر فيها التعليم إلا فى القرن الثالث عشر الميلادى .

كما شُيِّدَ جامع القرويين سنة ٨٥٩ م ليكون مركزاً للتعليم فى القطاع الغربى من مدينة فاس بالمغرب ، حيث كان يسكن المهاجرون القيروانيون ، وميلاً مع التخفيف انقلب هذا الاسم إلى القرويين .

وحين غزا الفرنسيون مصر لضرب الإنجليز فى الشرق بقيادة نابليون سنة ١٧٩٨ تفتحت الأذهان إلى ضرورة الحاجة للعلوم العصرية الحديثة ، وكان الأهر جديراً باستيعاب هذه العلوم .

ولكن « محمد على » الذى تبنى فكرة تحديث مصر بدأ يُضَيِّق الخناق على التعليم الدينى متمثلاً فى الكتاتيب وفى الأزهر بتقاليده العلمية التى جعلت منه

---

(١) انظر : العِلمانية ص ٥٨٢ وما بعدها .

جامعة من أقدم جامعات العالم وأكثرها شُهرة ورسوخاً . وقد انسحب تضييق « محمد على » على الأزهر إلى علمائه حتى فى مخصصاتهم وأرزاقهم .

وحينما أسس المدارس الحديثة بمناهجها ضَيَّقَ الخناق على علوم اللُّغة العربية والعلوم الدينية ، وصار تدريس اللُّغة الأجنبية والتاريخ الأوروبى والحضارة الغربية يحظى بدرجة عالية من الاهتمام ، وأصبح الطالب يعرف عن نابليون بونابرت وعن نلسون القائد الإنجليزى الذى حطَّمَ الأسطول الفرنسى أكثر مما يعرف عن قوَّاد المسلمين الأوائل الذين نشروا الإسلام وبسطوا نفوذه على أكبر إمبراطوريتين كانتا موجودتين آنذاك ، الفُرس والروم [1] .

وأصبحت المدارس الحديثة هى التى تؤهل طُلاَّب البعثات العلمية التى ترسل للدراسة فى أوروبا ، وظل الأزهر قاصراً على دراسة الفقه وأُصول الدين والتوحيد والحديث والتفسير والنحو والصرف والمعانى والبيان والبديع والمنطق .

واقترنت هذه الازدواجية بالتفاوت الكبير فى مستوى المعيشة والحياة والوظيفة بين الأزهر والتعليم الحديث ، وفتح « كرومر » الوزير البريطانى على يد « دنلوب » المستشار التعليمى الإنجليزى المدارس الحكومية الكثيرة التى تُمَجِّد الغرب ومدنيته ، وتُهَوِّن من شأن الإسلام وحضارته ، وتطاولت الألسن على الأزهر للقضاء على القِيَم الإسلامية والتُراث الدينى للأُمة .

ونستطيع أن نُقَدِّم صورة من هذه الخطة بلسان أحد ساسة الإنجليز المسؤولين ، وهو « اللورد لويد » الذى كان مندوباً سامياً فى مصر ، حيث يقول فى كتابه « مصر منذ كرومر » الذى ظهر سنة ١٩٣٣ : « إن التعليم الوطنى عندما قدم الإنجليز إلى مصر كان فى قبضة الجامعة الأزهرية الشديدة التمسك بالدين ،

---

(١) انظر « التغريب فى التعليم فى العالم الإسلامى » للدكتور محمد عبد العليم مرسى ، ص ٦٤

والتى كانت أساليبها الجافة القديمة - حسب تعبيره - تقف حاجزاً فى طريق أى إصلاح تعليمى ، وكان الطلبة الذين يتخرجون من هذه الجامعة يحملون معهم قدراً عظيماً من غرور التعصب الدينى ، ولا يصيبون إلا قدراً ضئيلاً جداً من مرونة التفكير والتقدير ، فلو أمكن تطوير الأزهر عن طريق حركة تنبعث من داخله هو لكانت هذه خطوة جليلة الخطر ، فليس من اليسير أن نتصور أى تقدم ، طالما ظَلَّ الأزهر متمسكاً بأساليبه الجامدة ، ولكن إذا بدا أن مثل هذا الأمل غير متيسر تحقيقه ، فحينئذ يصبح الأمل محصوراً فى إصلاح التعليم اللادينى (المدنى) الذى ينافس الأزهر ، حتى يُتاح له الانتشار والنجاح ، وعند ذلك سوف يجد الأزهر نفسه أمام أحد أمرين : فإما أن يتطوَّر ، وإما أن يموت ويختفى » [1] .

وقد أثمرت هذه الجهود التى بذلها المستعمرون فى العالَم الإسلامى خلال قرن أو أكثر ، وكان ثمرتها مجموعة من علماء المسلمين المتفرنجين .

ثم أُنشِئَت الجامعة المصرية ، وتولى إدارتها من ذَوى الاتجاه العلمانى « لطفى السيد » ، وأُنشئت كلية حقوق لدراسة القوانين الغربية وتولية المتخرجين منها وظيفة القيام على تطبيق هذه القوانين ، وأفرخت هذه الجامعة جامعات أخرى حذت حذوها ، وصار التعليم مختلَطاً فى جميع مراحله ، وأصبحت الأبواب مفتوحة أمام الغزو الثقافى الغربى بفلسفته اللادينية ، ومذاهبه الأدبية ، وأفكاره الإلحادية .

ووسائل الثقافة العامة فى الإعلام المقروء والمسموع والمشاهَد تحوَّلت إلى غذاء دائم يدعم العِلمانية ، ويدعو إلى التفسخ من الدين .

---

(١) انظر : حصوننا مهددة من داخلها ، ص ٣٥ ، ٣٦

ففى العالَم العربى اقترن مولد الصحافة بحملة « نابليون » على مصر ، إذ أصدرت الحملة فى القاهرة جريدتين باللُّغة الفرنسية ، وأصدر « محمد على » جريدة الوقائع المصرية ، وما زالت تصدر باعتبارها جريدة رسمية ، والذى يطلع على تاريخ الصحافة يجد حشداً هائلاً من النصارى والمستغربين والمتعاطفين مع تيَّار التغريب تولى إصدارها ورئاسة تحريرها ، إذ كان روَّاد الصحافة الأوائل : أحمد فارس الشدياق ، ورفاعة رافع الطهطاوى ، وأديب إسحاق ، وخليل الخورى ، وبطرس البستانى ، ومحمد عثمان جلال ، وعبد اللّه النديم ، وجمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده ، ويعقوب صنوع ، وفرح أنطون ، وخليل مطران .

ومن الصحف التى عمرت طويلاً « الأهرام » لسليم وبشارة تقلا ، وقد صدرت سنة ١٨٧٥ ، وما زالت تصدر .

ومن المجلات مجلة « المقطم » ليعقوب صروف وفارس نمر وشاهين مكاريوس ، صدرت سنة ١٨٨٨ .

ولا نستطيع فى هذه الإشارات أن نسرد الصحف والمجلات والنشرات التى تحمل الفكر العِلمانى ، ويكفى قراءة هذه الأسماء حتى يتبيَّن لنا النهج التغريبى الصحفى ، والمسار الذى سلكه .

والبرامج فى الإعلام المسموع والإعلام المشاهَد يغمرها هذا السيل العِلمانى الجارف .

وانتشر هذا التيار فى أرجاء العالَم الإسلامى سوى مَن عصم اللّه بصور مشابهة .

وآخر ما أبدعه التغريب فى مجال الأدب هو بدعة « الحَداثة » التى يلمع بريقها ، ويتباهى بها عبيدها ، وهى مذهب فكرى غربى وُلِدَ ونشأ فى الغرب [١] .

---

(١) اقرأ فى ذلك كتاب : الحداثة فى ميزان الإسلام ، للأخ عوض بن محمد القرنى ، ط . هجر ، واطلع واستمع إلى شريط مسجل للأخ سعيد الغامدى .

ومفهومها يختلف من باحث لآخر ، أهى لون من حركة الشعر الحر ؟ أم هى قصيدة النثر ؟ أم الإغراب فى الخيال ؟ أم الثورة على التقاليد ؟

والحقيقة أن الحَداثة أخطر من ذلك بكثير ، فهى اتجاه فكرى أشد خطورة من الليبرالية والعلمانية والماركسية وكل ما عرفته البَشرية من مذاهب واتجاهات هدّامة ، وذلك أنها تتضمن كل هذه المذاهب والاتجاهات . وهى لا تخص مجالات الإبداع الفنى أو النقد الأدبى ، ولكنها تعم الحياة الإنسانية فى كل مجالاتها المادية والفكرية على السواء .

وقد ارتبطت الحَداثة فى نشأتها وفى مفهومها بالفكر الغربى ، وهى تعبير عن التحول الحضارى فى أوروبا وأمريكا وواقعهما التاريخى ، ولم يعرفها العالَم العربى إلا من خلال استيراده الذى لا ينقطع لنُظم الحياة الغربية وأفلام التليفزيون والسينما .. جنباً إلى جنب مع الأسلحة المتطورة ، والوسائل التكنولوچية وأدوات الرفاهية ...

والحَداثة بمفهومها الاصطلاحى اتجاه جديد يُشَكِّل ثورة كاملة على كل ما كان ، وماهو كائن فى المجتمع ، ويصفها أحد الباحثين الأوروبيين بأنها زلزلة حضارية عنيفة ، وانقلاب ثقافى شامل [1] .

* * *

● علمانية الحياة الاجتماعية والاقتصادية :

لقد آتت الأمور السابقة أُكلها الخبيث فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية بالعالَم الإسلامى .

فالمرأة - وهى ربة البيت ، ونواة أُسرة المجتمع ، كانت تعيش فى مجتمع إسلامى محافِظ ، تحرص على الحِشمة والوقار ، وتنفر من شِباك الشر والفساد ،

---

(١) انظر : الحداثة والتراث - للدكتور محمد مصطفى هدارة - مجلة بيادر - التى يصدرها نادى « أبْهَا » الأدبى - العدد الثانى - ١٤٠٩ هـ (١٩٨٨ م) .

اتصلت بنساء الغازين المستعمرين ، وشاهدتهن فى الشوارع بالثياب الكاسية العارية ، يداعبن الرجال ، ويتبخترن فى سيرهن ، فأخذ ثوب الحياء يرق شيئاً فشيئًا ، حتى فشا السفور ، وأصبح أمارة من أمارات التمدن .

وسمعت المرأة المسلمة وشاهدت فى الحفلات والتليفزيون والڤديو الرقص العارى ، بين النساء والرجال ، يأخذ الرجل بخاصرة المرأة ، ويحملها بين ذراعيه ، فتداعى فى نظرها المعايير الأخلاقية ، وضعفت قيمها .

ولم يقف الأمر عند هذا ، ففى مصر جاء « قاسم أمين » (١٨٦٥ - ١٩٠٨) وهو وثيق الصلة بمحمد عبده وسعد زغلول ، عائداً من فرنسا بعد أن درس القانون بجامعة مونبيليه ، وتزعم حركة الدفاع عن قضية المرأة العربية ، فدعا إلى سفورها وتعليمها ومشاركتها الرجل فى الحياة العامة ، وعمل على نشر فكرته فى كتابيه « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » وتتلخص أفكاره فيما يأتى :

١ - أن المرأة مساوية للرجل فى كل شئ .

٢ - أن الانتقاب والتبرقع ليسا من الإسلام ، لا للتعبد ولا للأدب ، بل هما من العادات القديمة السابقة على الإسلام والباقية بعده ، استحسنها المسلمون كسائر العادات الضارة التى تمكنت فى الناس باسم الدين والدين منها براء .

٣ - أن الحجاب ليس عائقاً عن التقدم فحسب بل هو مدعاة للرذيلة ، وغطاء للفاحشة فى حين أن الاختلاط يهذب النفس ويميت دوافع الشهوة .

ثم قامت « هدى شعراوى » (١٨٧٩ - ١٩٤٧) فأسست الاتحاد النسائى المصرى سنة ١٩٢٣ وكانت أول مَن رفع الحِجاب فى القاهرة وطالبت بمساواة

الجنسين فى التعليم وفى الحقوق السياسية ، كما طالبت بتعديل قوانين الطلاق وتعدد الزوجات وحضانة الأولاد ، وسميت حركتها « حركة النهضة النسائية » .

وسرت هذه العدوى إلى البلاد العربية الأخرى ، كما انعكس أثرها على العالَم الإسلامى بأثره .

والابتداع الأخير فى ذلك نشرته جريدة « المسلمون - العدد ٢٤٣ السنة الخامسة » ، عن مؤتمر نسائى عُقِدَ فى نيروبى ، إذ عقدت مجموعة من النسوة العربيات والمسلمات مؤتمراً فى نيروبى للمطالبة بتعدد الأزواج ، وارتداء الرجل للحِجاب أسوة بالمرأة ، ونسب المولود إلى الأم بدلاً من الأب .

إنه المؤتمر الأضحوكة الذى رأسته الدكتورة نوال السعداوى المصرية ، وأعلن وزير التربية والتعليم العالى فى بلد عربى مسلم فى الأيام الأخيرة الماضية الحرب على الحِجاب ، وعلى مادة التربية الإسلامية فى مناهج التعليم الثانوى [١] .

وليس بخاف على أحد ما فى كثير من البلاد الإسلامية من الملاهى الراقصة بلياليها الحمراء ، وقد تجد شوارع كاملة لهذا الغرض باسم السياحة ، ومورد السائحين ، فأين هذا من المثل المتوارث : « تجوع الحُرَّة ولا تأكل بثديبها » ؟

وإذا أتيتَ إلى الجانب الاقتصادى وجدتَ التعامل الربوى فى ذروته ، فالمصارف ودور الاستثمار المالى على النمط الغربى ، ومنذ صدرت فتوى محمد عبده فى إباحة صندوق التوفير ارتفعت الأصوات لفصل الحياة الاقتصادية بكاملها عن التشريع ، وقال حفنى ناصف : « إن الربا بفائدة ليس من أنواع الربا المحرَّم ، وإن سبب تخلف مصر - كما يزعم فى الماضى - هو عدم فتح بنوك

---

(١) هو وزير تونس محمد الشرفى - اقرأ جريدة المسلمون ، العدد ٢٤٤ ، الجمعة ٧ ربيع الأول سنة ١٤١٠ هـ (٦ أكتوبر ١٩٨٩ م) .

على الطريقة الغربية » ، ثم جاء بعده من شيوخ الأزهر مَن ردَّد هذه النغمة ، وهى حديث الساعة فى هذه الأيام ، ولكنها « شنشنة نعرفها من أخزم » .

وقد تَمَّ عزل الشريعة عن المجال الاقتصادى منذ زمن بعيد ، إلا أن المغرضين لا يزالون حريصين على اختلاق ما يبرره ، والواقع الاقتصادى التطبيقى يصطدم مع النصوص الصريحة فى الإسلام [١] .

* * *

(١) انظر العلمانية ، ص ٥٨١